حوار في القمة

محمد جلال كشك

حوار في أنقره

المختار الإسلامي

ص.ب ١٧٠٧ القاهرة
هاتف ٩٣٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م

التركى حائر بين تاريخه الذى تنكرت له الدولة وعاد اليه الشباب بل وبعض السياسيين الذين يريدون ركوب « موجة » العودة للتراث ، التى تجتاح الشعب التركى .. التركى حائر بين ارتباط دولته بالغرب ، وكراهية الجيل الجديد للغرب بل وتطرفه فى هذه الكراهية . التركى حائر بين اسرائيل وبين تاريخه ومصالحه وارتباطه الروحى والعاطفى بالحق العربى . هذه الحيرة هى مفتاح فهم الموقف التركى الذى سنقدمه من خلال هذا الحوار الذى أجريته فى أنقرة العاصمة التركية التى اختارها كمال أتاتورك لكى ينتقل اليها بدولته الجديدة معترفا بسقوط اسطمبول التى كانت رمزا للدولة الاسلامية الكبرى التى فرضت وجودها على أوربا ستة قرون وهو حوار دار على كافة المستويات من رئيس وزراء سابق الى وزير خارجية حالى الى عناصر اسلامية بل وحتى يسارية متطرفة .. وهو فى مجموعه يعطى صورة للفكر التركى الباحث عن هوية لأمته .. عن دور لها .. عن ملامحها الشخصية بتقديم وجهة نظر المسؤولين الأتراك ، فى السياسة الخارجية والأوضاع الداخلية لتركيا ، وذلك من خلال حديثين :

الأول عن السياسة الخارجية لتركيا ، مع وزير خارجيتها ـ الى اشعار آخر ـ السيد « أدميت هالول بولكين » ..

والثانى مع زعيم حزب العدالة « سليمان ديميريل » الذى يحدثنا عن وجهة نظر حزبه فى أوضاع تركيا الداخلية .

* * *

وصلنا الى وزير الخارجية عقب سلسلة من المقابلات البروتوكولية التقليدية فى البلاط العثمانى .. من المرافق «بولانت» وهو شاب اسطمبولى قال : انه لا يخجل من تاريخه العثمانى .. الى « سميح آقبيل » مدير عام الصحافة بوزارة الخارجية وخريج الجامعة الامريكية ببيروت الى مدير عام وزارة الخارجية « اسماعيل ايزير » الذى قال لنا صراحة : لا مقابلات مع الجنرالات . فلما طلبت مقابلة المعارضة اليسارية ، رد باجابة حاسمة واضحة لا تعطى فرصة لأى جدل . اذ قال : ان ذلك مستحيل لأنهم اما فى السجن أو مطاردين .. وفى الحالتين تستحيل مقابلتهم . ومن سكرتير عام الوزارة انتقلنا الى وزير الخارجية الذى رحب بنا ودعانا الى مشاهدة المدن الصغيرة بدلا من الاقتصار على المدن الكبيرة .. ورأينا أن نرد المجاملة بالمجاملة فسألنا سؤالا تقليديا : ما هى أسس السياسة الخارجية لتركيا ؟ وهو « أحلى » سؤال نوجهه لمتحدث رسمى ، يسجل أحدهم — علنا — كل كلمة يقولها هذا خلاف الاجهزة غير المرئية . ثم مراجعة أقواله من قبل لجنة من العسكريين :

انفرجت أساريره وبدأ يتلو علينا :

ان السياسة الخارجية لتركيا تقوم على ثلاثة مبادىء :

السلام ، والأمن ، وتدعيم التعاون الدولى ..

ولقد التزمنا دائما خلال علاقاتنا الثنائية والدولية بهذه المبادىء . كما التزمنا باحترام القانون الدولى وميثاق الامم المتحدة دون تمييز فى العلاقات بين الدول الكبرى والصغرى .. مؤكدين على احترام استقلال وسيادة وسلامة أراضى جميع الدول ، ورفض التدخل فى شؤونها الداخلية . ملتزمين بمبدأ حل المنازعات الدولية بالطرق السلمية ، وتأييد استقلال المستعمرات وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ..

وخشيت أن يسمع لنا ميثاق الامم المتحدة فقاطعته :

— كل سياسة خارجية تنبثق من تصور لدور واقع الدولة .. فهل تعتبر تركيا دولة شرق أوسطية أم دولة أوروبية ؟ .

وتغيرت اللهجة .. وقال : فى القرن العشرين لا يجوز أن نتحدث عن دولة شرقية ودولة غربية ! .. ولكن اذا كنت تتحدث من الناحية « الجيوبوليتيكية » فان تركيا بحكم موقعها الجغرافى هى جسر بين آسيا والشرق الاوسط وأوروبا .

قلت : لا يمكن أن تختار دولة لنفسها دور الجسر .. والقرن العشرون هو القرن الذى تميز بحدة الوعى بالفارق بين الشرق والغرب .. وأهمية هذا السؤال أنه يحدد موقف تركيا من أحداث المنطقة . وهناك فارق بين نظرة دولة أوروبية للصراع العربى — الاسرائيلى ... وبين نظرة دولة شرق أوسطية مرتبطة بالعالم العربى ، يهددها الوجود الاسرائيلى . ولكنه عاد يقول : بالنسبة « للجيوبوليتيك » فقد أوضحت أن لنا ثلاثة خصائص .. نحن دولة آسيوية .. ونحن دولة يقع جزء من أرضها فى أوروبا .. ونحن احدى دول الشرق الاوسط .. وفيما يتعلق بأزمة الشرق الاوسط فنحن نلعب دورا محافظا للغاية .. وأعتقد أنه مقبول من كل دول المنطقة . ولم نسمع أى اعتراض عربى عليه .. بل بالعكس لقد تلقت حكومتى الثناء من أكثر من مسؤول عربى على موقفنا فى الامم المتحدة .

— وموقفكم من اسرائيل ؟

* نحن نتبع سياسة مستوحاة من مبادىء الامم المتحدة وبلا تحفظ ازاء جميع دول الشرق الاوسط .. وبالنسبة للدول العربية فقد كانت لنا علاقات مشتركة دامت عدة قرون ، وكانت لنا حياة مشتركة .. المهم أن التركى لا يحس بالغربة فى البلدان العربية .. وأظن أن العربى يواجه الاحساس نفسه عندما يزور تركيا .. ان

أكثر من صفة مشتركة تميز حياتنا . وهذا الماضى المشترك يفتح الامل فى مستقبل مشترك .. ولقد تصرفنا فى الامم المتحدة على نحو شكره العرب ، وأصدرنا تصريحا فى مناسبة للذكرى الخامسة لحرب ١٩٦٧ رحبت به الاوساط العربية .

— اذا كانت تركيا تعتبر نفسها دولة شرق أوسطية فان ذلك يتيح لها فرصة لعب دور قيادى يتناسب مع قوتها ، أو مع تقدمها الصناعى .. ولكن محاولتكم التشبث بأوروبا لن تمنحكم الا مكانة الدولة الأخيرة اذا ما قبلتكم أوروبا ؟

قال وزير الخارجية :

* لقد شرحت الدور الذى تلعبه بلادى فى حدود موقعها الجغرافى .. واذا كانت تركيا تتقدم صناعيا الآن ، فان ذلك لايعنى أنها ستبقى وحدها فى هذا المضمار ، ان تركيا وايران وباكستان تحقق تقدما صناعيا ، وكذلك فان الدول العربية جديرة بذلك ، ولذا لا يمكن بناء سياسة على أسس أوضاع اقتصادية مؤقتة .. ونحن نأمل فى قيام تعاون اقتصادى مع أصدقائنا العرب ..

وانضمامنا الى السوق المشتركة الاوروبية (الخطة التركية تستهدف تحقيق هذا الانضمام سنة ١٩٩٥ ولكن معدل التنمية الحالى يجعل هذا الهدف موضع شك كبير) لا يعنى أننا سندير ظهرنا للشرق الاوسط .. فالاقتصاد لا يعترف بحدود ، ودور تركيا كما قلت هو الجسر بين أوروبا والشرق الاوسط ..

— هل صحيح ما أذيع عن أن « بودغورنى » قدم لكم أثناء زيارته لتركيا طلبا بعقد معاهدة ؟

* مع احترامى الشديد للصحافة ، الا اننى لا أعتقد أن كل ما تنشره هو صحيح بالضرورة . ان مثل هذه المعاهدة لم يشر اليها قط .. اننا جيران طيبون مع الروس ولنا معهم علاقات اقتصادية

وتجارية وثقافية . وهذه العلاقات تتطور .. ونحن سعداء مع الروس بهذه العلاقات . وفى الحقيقة أننى لم أضف شيئا فى ما أقوله لكم الآن على ما أذيع فى البيان المشترك الذى صدر عقب الزيارة .

— ما رأيك فى قرار الرئيس السادات بانهاء الخبراء الروس ؟

* لا أعتقد أن من حق أحد أن يتدخل فى أمر يخص المصريين .. ولكن ألاحظ مما تنقله وكالات الانباء أن الطرفين (المصريين والروس) يتصرفان بحكمة .

— هل تعتقد أن تركيا تلعب الدور الذى يتناسب مع قوتها العسكرية أو تعدادها أو موقعها ؟

* بالطبع لنا سياستنا المستقلة .. ولكن ما من دولة تستطيع ادعاء استقلال ارادتها فى العمل ، أو تحررها من كل تأثير خارجى .. فكل بلدان العالم بما فيها بلادكم تتأثر بنفوذ خارجى من هنا أو هناك ، حتى الدول الكبرى . ففى هذا الزمن يستحيل أن يقول وزير خارجية أن سياسته الخارجية متحررة من كل التأثيرات الخارجية .

وعندما عاود السيد بايوكين الحديث عن اسرائيل قاطعته :

— ليس من المعقول أن يكون حق اسرائيل فى الوجود هو محور العلاقات العربية — التركية .. هناك أكثر من عامل مشترك يمكن أن يدور حوله الحوار ..

وانتقل الحديث الى قبرص فقال الوزير :

* ان موقف الحكومة التركية ينطلق من الاعتراف بأن الجزيرة دولة تسكنها قوميتان حصلتا على استقلالهما بموجب معاهدة وقعت فى سنة ١٩٦٠ .

والقوميتان شريكان متساويان فى التمتع بالحقوق التى انتقلت للدولة القبرصية بموجب هذا الاستقلال . ومن الممكن العمل فى اطار هذه المبادىء الثابتة لكى تصل الى حل يضمن الحقوق المشروعة لكل الاطراف المعنية . ولست أحب أن أعلق كثيرا الآن لأن المباحثات قد بدأت بين ممثلى الاتراك واليونانيين والقبارصة .. ولا اريد أن « أشوش » عليها ..

أما عن علاقتنا باليونان ، فنحن وهم شركاء فى حلف واحد .. وعلاقاتنا كانت طيبة جدا فى عهد أتاتورك وفنزيلوس .. ولكن انفجار أزمة قبرص ، ألقى ظلاله على هذه العلاقة .. والآن عاد الصفاء .

* * *

وخرجنا من مبنى وزارة الخارجية التركية لنتوجه سريعا الى مقر حزب « العدالة » حيث كان « سليمان ديميريل » المهندس الذى بدأ حياته راعيا ووصل الى رئاسة الحكومة .. والذى كان يمثل آخر أمل فى حل « بورجوازى » لأزمة تركيا .. والذى اعتمد على أصوات الرأسمالية الصناعية ، والجماهير المطالبة برفع القهر عنها مع براعة فى التوازن أبقته دائما فى معسكر البورجوازية وان جاء الى السلطة بأصوات اليمين .. بدأ صلته بالجيش فى سنة ١٩٦٠ عندما أجبروه على أداء الخدمة العسكرية وهو يقترب من الاربعين ! . ثم دعموه حتى وصل الى رئاسة حزب العدالة وفاز حزبه فى انتخابات ١٩٦٥ فشكل الحكومة ..

فتابع سياسة مندريس فى دعم التطور الصناعى ، والافراج التدريجى عن عقيدة الجماهير .. ولكن الفضائح المالية ثم انفجار الازمة الاقتصادية والسياسية ثم عملية التشرذم التى تعرضت لها كل الاحزاب والقوى السياسية .. كل هذه العوامل دفعت الجيش

مرة أخرى للسطح وأزاحت « سليمان ديميريل » الى مكتبه فى مقر الحزب ..

* * *

ـ ما هو وضعكم الآن ؟

قال سليمان ديميريل :

* نحن أكبر حزب فى تركيا .. سواء من ناحية عدد الاعضاء أو من ناحية الاصوات التى حصلنا عليها فى آخر انتخابات ، أو من ناحية عدد النواب الذين يمثلون الحزب فى البرلمان .. ورغم ذلك لنا ٨ أعضاء فى الحكومة المكونة من ٢٤ وزيرا .. وهذا يعطى فكرة عن الوضع !! ..

ـ وما هو الوضع ؟

* أزمة .. أزمة .. نحن فى أزمة ..

وكانت اجابة بارعة ، فهو لا يستطيع أن يهاجم النظام ولكنه أيضا لا يستطيع أن يدافع عن الوضع الحالى الذى يحرمه من الحكم رغم أنه يملك أكبر عدد من مقاعد البرلمان .. والحل هو اعتبار النظام فى « أزمة » .. أى حالة مرضية .

قلت : ولكنك تتحمل مسئولية الوضع ما دام لك ٨ وزراء فى الحكومة !

قال : ليس لى وزراء بل أعضاء فى الحكومة ! .. نحن لسنا حزبا معارضا ، ولا حزبا فى الحكم ! لان نظامنا الديمقراطى معطل حاليا ، وحين تجرى الانتخابات سنشترك فى الحكم ..

ـ لماذا قبلت ترشيح أعضاء من حزبك فى الحكم ؟

* لأننى اذا لم أفعل لن تكون هناك حكومة .. أنا لا أعتبر حزبى مسؤولا عن الاجراءات التى تتخذها الحكومة ، ولكننا

مسؤولون عن التشريعات التى يصدرها البرلمان ، لاننا أعضاء فى البرلمان ، ولا يمكن أن نتنصل عن مسؤوليتنا فى هذه التشريعات .

– وما المخرج من هذه الأزمة ؟

* بالانتخابات .. بالانتخابات التى ستجرى فى أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣

– اذا كان المخرج هو الانتخابات فلماذا لا تطالبون بها الآن .. لماذا تعيشون فى أزمة الى أكتوبر ١٩٧٣ .

* لأن لدينا مشاكل .. ولابد من تصفية الارهاب ..

واستدرك السياسى الذى يفكر دائما فى أصوات الناخبين..

نعم لابد من تصفية الارهاب ولكن هذه التصفية يجب ألا تتجاوز حدا معينا فى أساليبها واجراءاتها ..

وأردت أن أزيد الازمة فسألت :

– **ألا يمكن تصفية الارهاب** فى ظل حكم ديمقراطى ؟

* ممكن .

وهنا استدرك **السياسى الذى جرب بطش الانقلابات العسكرية :**

* نعم ممكن .. ولكننا **حديثو عهد بالديمقراطية** .. ربما لم نتعلمها بعد .. وبدون الاحكام العرفية لا يمكن تصفية الارهاب .

– هل هناك جهات معينة خلف النشاط الارهابى ؟

* من السهل جدا اتهام هذه الجهة أو تلك ، ولكن ذلك لاينهى الازمة .. اننا نعيش أزمة شاملة ، ويجب أن نواجهها .. وفى اعتقادى أنها ليست شرا مطلقا .. بالعكس لقد كشفت لنا الكثير من واقع حياتنا .. كشفت لنا ما ينقص هذه الحياة .. ان تركيا

جديدة يجب أن تولد من جديد .. هذا هو النداء الحقيقى الذى تطلقه أحداث الازمة التى نعيشها .

– ... ...

* نعم يجب أن نعيد النظر فى الدستور والقوانين وعلاقة الدولة بالناس ، وأسلوب العمل فى الاجهزة الحكوميه ، ونحن فى حاجة الى تناسق أكثر وتعاون أكبر بين المواطنين .. هذه الاصلاحات هى فى اعتقادى شرط توفر مناخ صالح لاجراء انتخابات ديمقراطية يطمئن الناس الى نتائجها ويرضون بالحكومة التى تأتى بها ..

قلت : ولكنك لم تشر الى أية اصلاحات اجتماعية ؟ مع أن الازمة فى جوهرها أزمة صراع اجتماعى ..

* بالتأكيد نحن فى حاجة الى اصلاحات اجتماعية .. واذا ما بدأنا هذه الاصلاحات فلن نتوقف أبدا .. ولذا يجب أن تكون لدينا موارد كافية لتحقيق هذه الاصلاحات .. يجب أن نمتلك ما يكفى للتوزيع ، قبل أن نرفع شعار التوزيع .. ان الاصلاح الاجتماعى ليس مجرد شعار يرفع ، فتحل المشاكل بترديده بل لابد أن يرتبط بخطة وبرنامج .. لا بد أن يكون شعار التغيير واعيا بأننا نعيش فى عالم يتغير بمعدل يفوق القدرة على صياغة الشعارات .. يجب أن نحدد ما الذى نريده بشعار الاصلاحات الاجتماعية.. هل نريد التأميم ؟ .. أم تحسين علاقات الانتاج ؟ .. هل الماركسية اصلاح اجتماعى ؟ ..

ان النظام التركى جمهورى مبنى على احترام الحقوق الفردية .. ولقد اخترنا نظاما ديمقراطيا على الطراز الغربى .. ولسنا على استعداد لتغييره .. لسنا على استعداد للتخلى عن أساس الديمقراطية الغربية ..

— وهل تعيشون الآن ديمقراطية على الطراز الغربى ؟

وقام من مقعده وتقدم منى بقامته الضخمة التى تشبه قامة مصارع .. وتابع الحوار :

* قلت لك نحن فى أزمة .. أنا أحدثك عن النظام الطبيعى وليس عن الأزمة .

قلت : يقولون أنك تتجه يمينا بالدعوة الى الافراج عن الاسلام بينما يتجه حزب الشعب يسارا بطرح شعارات حرب الطبقات ؟ .

* أنا لا أحب أن أربط بين الاسلام واليمين .. واليمين واليسار مصطلحات غربية ظهرت فى الغرب .. وبدأت كتعبير عن موقف اقتصادى أو اجتماعى .. وليس للتعبير عن الموقف فى الدين .. فى كل بلاد العالم يوجد كاثوليك وبروتستانت ويهود .. فلماذا يصبح الاسلام وحده هو الرجعية أو اليمين .. لسنا بحاجة الى استيراد تعبيرات أو شعارات أو أفكار أو مبادىء .. لسنا بحاجة الى « ماركس ولا آدم سميث » .. لسنا حملة شعارات بل ان ما نتطلع اليه هو بناء بلد قوى وغنى .. واذا كنا لا نعمل فلن نمتلك شيئا .. ولن نوزع شيئا .. فبغير انتاج .. لا توزيع .. ان تنمية الدخل القومى هى شرط العدالة الاجتماعية ..

— ولكنك باتجاهك الاسلامى تتنكر للكمالية .. ؟

ورجع الى مقعده مرة أخرى وجلس تحت صورة أتاتورك التى تطل فى كل مكان .. وقال :

* أعتقد أن الكمالية لم تفهم .. لا فى هذا البلد ولا خارجه .. لقد مات أتاتورك منذ ٣٤ سنة وكل ما قاله محفوظ ومكتوب .. ولكن البعض هنا يتاجر بالكمالية (من كمال أتاتورك) .. فيدعى أنه الامين على مبادئها ، وأنه هو خليفة أتاتورك .. ويرهب

الجميع بأنهم خرجوا عن الكمالية ولا أظن أن ذلك من مصلحة تركيا، ولا من مصلحة الكمالية ..

كل ما أراده أتاتورك هو بناء دولة فى مستوى العصر .. وأنا لا أجد فى ماضينا ولا فى تاريخنا ولا فى ديننا ما يعوقنا عن بناء هذه الدولة .. اننا نفخر بتاريخنا ، ولا نتنكر لحرف واحد منه .. بدون تاريخنا .. بدون تراثنا .. لن نكون أمة .. لأنه لا أمة بلا تاريخ .. ولا مكان لشعب يتنكر أو يخجل من تاريخ آبائه وأجداده اننا نفخر أننا أكبر بلد اسلامى وأن ٩٩٪ من شعبنا مسلمون .. .. وعندنا ٥٠ر٠٠٠ جامع .. وحيثما ذهبت ستجد الناس يصلون الصلوات الخمس . الكمالية قالت برفض تدخل الدولة فى الدين ولكن البعض فهم ذلك على أنه اضطهاد للدين .. وهذا الموقف هو تدخل فى الدين .. اننا ندافع عن حق الايمان كحق من الحقوق الاساسية للانسان فى مجتمع ديمقراطى .. ونؤمن أن بغير الايمان الدينى لا يمكن بناء أمة ولا دولة .. هناك فرق بين التدين والحكومة الدينية .. ونحن نؤيد حق التدين ، بل ونرغب فى ذلك .. ان أتاتورك أعطى هذا البلد الكثير ، واذا تنكر له هذا البلد ، فلن يعترف بأى زعيم بعده .. لقد أثار مصطفى كمال روح المقاومة فى الشعب التركى عندما كان الاعداء على بعد ٨٠ كيلو متر من هذا المكان الذى نجلس فيه الآن .. ولكن من الظلم أن نطالب أتاتورك بحل مشاكلنا بعد موته .. ان التاريخ فى حركة مستمرة .. وما دمنا قد اخترنا الديمقراطية فمن الظلم أن نقمع عاطفة الجماهير الاسلامية .

سؤال أخير ..

— هل تعتقد أن الظروف تسمح باجراء انتخابات حرة وببرنامجكم الاسلامى ؟

* انها قضية الشعب .. وارادة الشعب الحر لا تخضع لأى قيد .

ووعدنا « سليمان ديميريل » ونحن نتمنى له وللشعب التركى .. « العدالة » و « الديمقراطية » . وعلى فكرة .. اللغة التركية ليست فيها كلمة عدالة ولا ديمقراطية .. ولكن الأتراك استعاروا الاولى من العرب والثانية من الغرب .

كان ذلك هو أول صباح لنا فى أنقره .. وكنا فى فندق « بيوك أنقره أوتيل » أى فندق أنقره الكبير .. وهو أفخم فندق فى العاصمة ، والوحيد الذى يستحق رتبة الدرجة الاولى .. ومددت يدى أعبث بمفتاح الراديو المركب فى السرير وتتابعت المحطات من الانكليزية الى التركية الى الروسية الى البلغارية واليونانية .. وأخيرا سمعت : « هنا أنقره » وبالعربية ، واجتاحنى السرور .. فالاخوة الاتراك يذيعون برنامجا بالعربية .. هم يحرصون اذن على مخاطبة العرب ومحاورتهم ، ولا غرو فان أكثر من أربعة قرون ربطتنا بالمصير المشترك ..

وطلبت افطارا ممتازا لأستمتع بتناوله مع البرنامج العربى من الاذاعة التركية . ولكننى لم أتذوق لقمة واحدة بل حتى الشاى السيىء الرائحة ازداد سوءا ووقف فى حلقى .. فالبرنامج العربى كان برنامجا خاصا بمناسبة مرور ٣٣ سنة على عودة ولاية « هاتاى » للوطن الأم . وولاية « هاتاى » هى الاسكندرونة .. اللواء السليب كما اعتدنا أن نسميه فى بكائيات الصحف السورية ومؤلفات « محمد على الزرقا » مدير عام مصلحة تذكير العرب ، باللواء السليب ! وانتابنى الغم ..

لمصلحة من يحرص الاتراك على تذكيرنا باللواء السليب ونكأ الجرح الذى يمزق العلاقات العربية ـ التركية ؟ هل هو مجرد احتفال قومى ؟ فلماذا باللغة العربية ؟ .. لماذا لا يحتفلون به فى البرنامج التركى حتى لا يفهم العرب ويتألم العرب ؟! لماذا بالعربية وبالاذاعة الموجهة للعالم العربى ؟ وهل تحتفل الاذاعة التركية

بذكرى عودة المناطق « المحررة » من اليونان والطليان والفرنسيين والانكليز والروس .. الخ ..

واكتشفت أنه لا يحتفل على هذا النحو الا بعودة « هاتاى » مع العلم أن « هاتاى » بعكس المناطق الاخرى لم « تحرر » ولا «فتحت» بل سلمت بموجب صفقة مع الفرنسيين عشية الحرب العالمية الثانية .

والى يسارى جلس أحد مديرى وزارة الخارجية ـ لها ٩ مديرين ـ وقد لاحظ همى وكآبتى . فتعمد أن يفتح الحديث معى .. وصارحته بالسبب ، وكان ممتازا .. فقد همس بصوت خافت :

ـ فعلا أنا لا أفهم مبررا للاحتفال بهذه الذكرى ويثير دهشتى أن أعرف منك أنها تذاع فى البرنامج العربى .. وأعتقد أنه من الضرورى الغاؤه ..

وأرجو أن يكون قد رفع للمسئولين ملاحظته هذه ..

ولم تذهب كآبتى ولا تفتحت شهيتى للغداء .. فعلى يمينى جلس « نيازى بيير » من المهاجرين القبارصة ، هو وحده كان يرتدى القبعة ، بل لعله التركى الوحيد الذى قابلته فى « أنقرة » يرتدى القبعة ، فالأتراك شأنهم فى ذلك شأن العالم كله ، قد قذفوا بغطاء الرأس عرض الحائط .. وبينما تم ذلك بدون مظاهرات فى سائر البلدان .. فان خلع القبعة فى تركيا ينهى مأساة كاملة .. « فالتركى » قاوم لبس القبعة ، عندما أجبره على ارتدائها « كمال أتاتورك » .. قاومها الى حد التعرض للاعدامات والسجن والتعذيب الوحشى ..

وقد يبدو الأمر لنا سخيفا الى حد يتجاوز « نشفان الرأس » المعروف عن الاتراك .. اذ من غير المعقول أن تدخل الدولة حربا مع شعبها لمجرد اجباره على تغيير غطاء الرأس من الطربوش الى القبعة .. ولكن القضية فى حينها كانت مأساة كاملة ..

كان « الغازى » الذى هزت انتصاراته فى البداية أحـلام الشرق من الهند الى العراق ، وأنعش آمال المسلمين فى مواجهة حضارية قوية للغرب الاستعمارى المتعصب ، كان قد تحـول الى ديكتاتور .. وقرر أن يقطع كل صلة له بتاريخ وماضى وجغرافية تركيا ..

وكان مبرره الوحيد هو أنه سيجعل تركيـا دولة أوربية عصرية وقوية كالأوربيين الذين هزموا وأذلوا تركيا ! ..

ولأن تحويل تركيا الى دولة أوربية أى دولة صناعية متقدمة كان فوق طاقة « الشبح » وقدرات نظامه ، فقد اكتفى بفرض مظاهر الاوربية .. وكان لبس القبعة هو أحد مظاهر التفكير الكمالى الذى ساد الشرق و ما زال للأسف التفكير الذى يسعى الى تغيير ما فى الرؤوس بتغيير غطاء الرأس ! ..

فما دمنا نلبس قبعة كالأوربيين فلا بد أننا سنفكر كالأوربيين

هذا الخطأ بالطبع لم تكن نتائجه واضحة للاتراك الذى قاوموه بدافع من التعصب لتراثهم ودينهم واعتزازا بشخصيتهم القومية .

صحيح أن التاريخ قد حكم لصالح المتعصبين الاتراك ضد المتفرنجين الكماليين ، فبعد نصف قرن من لبس الاتراك القبعة والبدلة والكتابة من الشمال لليمين وبحروف لاتينية ، والزواج والطلاق على الطريقة الاوربية لم تصبح تركيا دولة أوربية ، بل لا يزال رئيس وزرائها فريد مبلان يعدها بدخول السوق الاوربية المشتركة فى سنة ١٩٩٥ (اذا بقت السوق الاوربية) ! .. بينما استمرت اليابان تلبس « الكومونو » والقبقاب ، وتعبد الامبراطور وتقتبس وتطور كل منجزات العلم الاوربى ..

لكن التاريخ بطىء فى حكمه ، وله عذره ، فعمره أكبر من أن يحركه قلق البشر القصيرى الاعمار ..

وعندما فرض « أتاتورك » على أولاده الترك (أتاتورك معناها أبو الترك وهى وحدها تكشف طبيعة العلاقة التى تصورها الحاكم مصطفى كمال عن الشعب التركى .. أنهم أطفاله) .. عندما فرض عليهم لبس القبعة ، ورفضوا أنزل بهم قصاصا جعل الاتراك ، وهم المعتزون برجولتهم الى حد العجرفة ، يهاجمون محلات القبعـات ويخطفونها لكى يغطون بها رؤوسهم تنفيذا للقـانون وفزعا من تنكيل السلطة ، حتى أنهم – كما يروى مصطفى الزين – لم يجدوا فى أحد المحلات الا قبعات نسائية فارتداها الرجال الأتراك وساروا فى شوارع أنقره بالاشرطة والقبعات الملونة ..

وانتصر الغازى .. على شعبه ... !

وأطاع الشعب قرار الغازى .. ولكن بالذل والقهر وكسر كرامة الانسان ..

وبالرعب يمكن أن يدوم نظام ، ولكن لا يمكن أن تقوم دولة أو يتقدم شعب ..

ليس هذا حديثنا – هذه المرة – المهم أن الاتراك خلعوا القبعة الا مسيو « نيازى بيير » الذى بدأ يشاغبنى بالحـديث عن موقف العرب من قبرص ، فرددت بالحديث عن موقف الحكومات التركيـة من اسرائيل ، فقال لى : نحن نكره اليهود ونحب العرب ،ولكن يجب أن تكونوا معقولين ! ..

وهذا النوع من الاتراك عندما يتحـدث عـن قبرص يهدد بالحرب ، ويدهش بتصويت العرب مع مكاريوس ، ولكن اذا انتقل الحديث لاسرائيل تهبط عليه الحكمـة ، ويطـالب العرب بالنظرة العملية ! ..

وانتقل الحديث الى موقف الدولة من الدين ، وفى البـداية حاول أن يقنعنى بتقدمية تركيا لأنها دولة لا تعترف بالدين ، فلما

اكتشف انه دخل خطأ فى الخط ، عـاد يؤكد أن الشعب التركى مسلم ! ..

أتمنى أن تبقى هنا ليوم الاحد لترى كيف يصلى الناس فى الجوامع بل وحتى فى الشوارع ..

ورغم أننى أكره أسلوب « القفش » الا أن القبرصى استفزنى فرفعت صوتى قائلا :

– الناس هنا يصلون يوم الجمعة ...

وتلفت حوله مرعوبا ، فعاجلته :

– أنا أعرف أن الشعب التركى مسلم ، وأعرف أن قلبـه مجروح لانه يعطى عطلة يوم الاحد .

قال : نحن يجب أن نكون دولة غربية ، وفى الغرب يعطلون يوم الاحد ! ..

قلت :

– اسرائيل أكبر غربة منكم وتعطل يوم عيدها الدينى .. يوم السبت .. لأن بنـاة اسرائيل هم الذين قالوا : « ان شعب اسرائيل لم يحفظ السبت ، بل السبت هـو الـذى حفظ شعب اسرائيل » ..

قال :

– عندما جاء أتاتورك وقرر أن نصبح دولة عصرية لم يكن يدرس فى بلادنا الا الدين ، لذلك منـع الـدين ليمكن تدريس العلم .. !

قلت :

– حتى لو سلمنـا بذلك ألم يكن من الممكن الجمـع بين الاثنين ؟!

تلفت حوله وقـال : أظن أنه ممكن الان ، وقتهـا كان مستحيلا ..

المهم أنه أفسد على غدائى .. وأنا أيضا أفسدت عليه غداءه وعشاءه .. لانه كان مدعو لهذا اللقاء كتجربة باعتباره مرشحـا لمنصب الملحق الصحافى فى سفارة تركيا ببيروت ..

وبعد الغداء .. اعتذرت عن العودة الى الفندق ، وتوجهت الى لقاء صديقى التركى « بكير سى .. » وهو وثيق الصلة بالعـالم العربى بحكم اشتغاله بالحركات الاسلامية .. وكان معه شاب وفتاة فوق سن الجامعة وأنضر من أن يكونا مسئولين .. وقد تعودت خلال اتصالاتى بالناس فى مثل المناخ التركى أن أكتفى بتعريف نفسى دون أن أطلب التعرف على الآخرين ..

وكان حوار ..

أعتقد أنه ضرورى لفهم خلفية العلاقات العربية التركية .. ضرورى لاقامة هذه العلاقات على أسس واضحة ..

كان حوارا حاولت فيه أنا وصديقى التركى أن يلعب كل منا دور محامى الشيطـان .. فدافعت أنا عن الاتراك ، وتبنى هو الاتجاهات العربية ..

قلت :

– ان نقطة الخطأ فى الحوار العربى – التركى هى الحسـاب بالجملة .. فالعرب يدينون تاريخ امبراطورية امتدت من أسـوار فيينا الى عدن ، ومن أواسط الاتحاد السوفيتى (الحالى) الى مراكش مدة ستمائة سنة ، يدينها جملة ، تحت تأثير فترة لا تتجاوز عاما وبسلوك حفنة من المشبوهين أعضاء جمعية الاتحاد والترقى فى بلاد الشام أو سوريا ولبنان .. وينسـون كـل ما قـدمه الاتراك للعرب ..

قال صديقى التركى : ونفس الشىء من الجانب التركى : ففى ١٤ تموز ١٩٥٨ عندما اقتحم الجيش العراقى قصر الرحاب ونفذ اغتيال الملك فيصل بن غازى صاحت أمه التركية : « عرب ... خيانات » .. مدينة كل العرب ..

كذلك فان علاقة الاخوة والمشاركة التى دامت قرابة أربعة قرون بين الامتين التركية والعربية ، تدان كلها وبالجملة بسبب الثورة الهاشمية ومواقف الشوام خلال الحرب العالمية الاولى وقبيلها .

قلت : فلنتجنب اذن حساب الجملة ، ولنناقش التاريخ بوقائعه .. ما هى اتهامات العرب ضد العثمانيين ؟

قال :

– انهم يتهمون العثمانيين باحتلال الوطن العربى والقضاء على استقلاله واستعماره ، ثم بفرض التخلف عليه أو القضاء على الحضارة العربية لأنهم كانوا جنسا متخلفا لا يتقن من فنون الحضارة الا الحرب .. وأنهم فرضوا حكما طائفيا متعصبا على الاقليات غير الاسلامية فى امبراطوريتهم ..

قلت :

– صدق الدكتور « زين نور الدين » عندما قال : ان معظم الذين كتبوا عن التاريخ التركى كانوا يجمعون بين الجهل والتعصب .

قال التركى :

تجنب الأحكام بالجملة ..

قلت :

– فى هذه لا .. لأن التاريخ التركى والعربى والشرقى لا تزال حتى الآن مصادره الاساسية هى المصادر الغربية .. وهذه المصادر تتميز بالتحيز الشديد ضد ما هو شرقى وبالذات ضد الدولة العثمانية فهذه الدولة :

* هى آخر وأقوى دولة شرقية صدت غزو أوربا بل ونقلت المعركة الى أرض أوربا لأكثر من ثلاثة قرون عاشتها أوربا فى رعب دائم من خطر « التركى » ولم تبخل مصادرها الدعائية والتعبوية فى كيل الاتهامات للاتراك لاثارة روح المقاومة فى أوربا التى كانت تجثو عاجزة تحت قدم الجيش التركى ..

* لأن الدولة العثمانية تحولت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الى مادة الاستعمار الغربى الذى يقتطع من جسدها ، ويتصارع على اقتسامها ، لذلك حرصت الدعاية الاستعمارية على تشويه صورة الحكم العثمانى والتاريخ العثمانى والانسان العثمانى لكى تبرر عملية تطويق وتمزيق واقتسام الدولة العثمانية .

* * *

* ان الدولة العثمانية اكتسبت فى أواخر عهدها عداوة الصهيونية .. عندما رفضت تسليم فلسطين لليهود فتفرغ هؤلاء بدورهم لتخريب الدولة وتشويه سمعتها ..

وقلت :

– ومن هنا يجب أن نتحفظ فى اطلاق الاحكام على الدولة العثمانية والتاريخ التركى ، لأن فهم حقيقة هذا التاريخ ضرورى لا لاقامة علاقات عربية – تركية سليمة ، بل وضرورية فى الحوار الدائر بين القوميين والاسلاميين العرب ..

قال :

– وأين الحقيقة .. هل تنكر أن الدول العربية فقدت عروبتها بالفتح التركى ..

* * *

قلت :

– العكس هو الصحيح .. البلاد التى فتحها العثمانيون هى التى بقيت عربية .. أسبانيا .. البرتغال .. صقلية .. رودس .. كريت .. مالطة .. وشرق وغرب ووسط أفريقيا ، كلها كانت عربية وفقدت عروبتها لان السيوف التركية لم تحمها .. الاستعمار الغربى الذى ظهر مع قيام الدولة العثمانية كامبراطورية كبرى ، كان يحمل طابع الابادة القومية .. ولو امتد الغزو الغربى

من أسبانيا والبرتغال الى الشاطىء الافريقى ، ثم لو انتشر الى الشاطىء السورى لما بقينا عربا حتى الآن .. بل لكنا شيئا شبيها بالمالطيين ، أو حتى كسكان أمريكا اللاتينية فى أفضل الاحوال .. الذى ابقانا عربا هم الاتراك والمدفعية التركية والاسطول التركى والدم التركى الذى دافع عن شواطئنا ثلاثة قرون حتى نضجت عناصر المقاومة وتغير شكل الاستعمار الغربى ، ولم يعد الاحتلال الغربى يحمل خطر الابادة القومية التى كان يمثلها فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر ..

— ألم يكن العرب يقدرون على الدفاع عن بلادهم وحدهم ؟ ..

— العرب كانوا قد تخلوا تماما عن صناعة الحرب قبل ظهور العثمانيين بأربعة قرون ، وانتقلت هذه المهمة للاتراك قبل العثمانيين على يد المعتصم فى منتصف القرن التاسع الميلادى ..

* * *

وعندما جاء الصليبيون الى الشواطىء العربية تصدى لقتالهم السلاجقة الأتراك والأكراد. ثم تولى المماليك وكلهم من الجنس التركى مهمة الدفاع عن الوطن العربى المتعرض للغزو من مصر والشام الى أن انهارت القوة العسكرية للمماليك ، وأصبح الغزو الغربى خطرا ماثلا على الوطن العربى كله ، فمدن الاندلس تتساقط واحدة اثر أخرى ، ولا يملك المؤرخ العربى الا أن يسجل ذلك بمثل هذه العبارات التى أثبتها ابن اياس :

« جاءت الأخبار من جهة المغرب بأن الافرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الاندلس ، ووضعوا فى أهلها السيف وقالوا : من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل فى ديننا قتلناه .. والأمر لله .. »

وكان البرتغاليون قد طافوا حول رأس الرجاء الصالح ودخلت سفنهم لأول مرة بحر الحجاز (البحر الاحمر) الذى كان يعتبر

بحيرة عربية كاملة طوال سبعة قرون ، ولم يقتصر العجز العربى على مجرد العجز عن صد أساطيل الفرنجة ، بل حتى عن فهم كيف وصلت هذه السفن من غرب البحر الابيض الى البحر الاحمر .فكتب مؤرخ هذه الفترة يفسر هذا الحدث التاريخى :

« وسبب هذا أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذى صنعه الاسكندر بن فلبس الرومى ، وكان هذا نقبا فى جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلا زالوا الفرنجة يعبثون فى ذلك مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب الى بحر الحجاز ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد ؟؟ » ..

وتبلغ المأساة ذروتها ، اذا ما عرفنا أن البرتغاليين طافوا حول رأس الرجاء بمعونة ملاح عربى ! ..

واحتلت قوات الفرنجة معظم مدن الساحل الافريقى ،طرابلس وتونس والجزائر ووهران لفترات متعاقبة كانت تخلف وراءها تخريبا ودمارا واستئصالا للكيان الحضارى العربى ..

* * *

وعشية الفتح العثمانى كتب المؤرخ المصرى ابن اياس فى يوميات سنة ٩٢٠ هـ :

« بندر الاسكندرية خراب وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجارة فى بحر الهند .

« الفرنج سلكو كمران ويخاف على جدة » . « جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الفرنج قد ملكوا مدينة طرابلس الغرب (فهذه هى الحقائق :

* العرب لم يكونوا يحكمون البلاد العربية ، بل المماليك ، وهم الذين كانوا يسمون فى تلك الفترة الأتراك بينما كان العثمانيون يطلق عليهم « الروم » ..

* العرب كانوا قد تخلوا عن صناعة الحرب ، ولم يكن بوسعهم الدفاع عن الوطن العربى ، والمماليك كانوا قد فقدوا خصـــائصهم الحربية ..

* خطر الغزو الاوربى كان يهدد بازالة الوجود العربى نهائيا، ولا تنسى ـ قلت لمحدثى التركى ـ أن السلطان الغورى سلطان مصر والشام والحجاز كان قد هزم أسطوله أمام أسطول البرتغال قبل أن يهزم هو أمام جيش العثمانيين ..

قال صديقى التركى :

ـ لا تنسى أن عثمان مؤسس الدولة العثمانية ولد ســـنة ١٢٥٨ م سنة سقوط بغداد تحت الاعصار المغولى .

وفى هذا المنعطف التـــاريخى ظهـر الأتراك كقوة عسكرية جبارة ..

وهنا تدخل الشاب فى الحديث فقال :

ـ تقصد الاعصار التركى .. ولكن ماالفرق بينه وبين الاعصار المغولى مثلا ..

قلت :

ـ الفرق كبير جدا .. الاعصار المغولى اكتسح قوى منهـــارة وتراجع بنفس السرعة التى زحف بها ، أما الفتح العثمانى فكـــان تعبيرا عن تفوق عسكرى وحضارى ...

فكما قال « ريتشارد فرلز » أن قيام الدولة العثمانية هو أكثر الظواهر اثارة للاعجاب فى العالم ، فتلك الامبراطورية التى استمرت ستة قرون وحكمهـا ٣٦ سلطـــانا هى التطــور الطبيعى للدولة السلجوقية التى تمثلت فيها الحضارة الاسلامية ـ العربية فى قمة نضجها .. فكما قال « سوفاجت » فى كتاب مقدمة لتاريخ الشرق الاسلامى (ترجمة ز. ن. ز.) : « ظلت الدولة العثمانية طـــوال القرنين السادس عشر والسابع عشر دولة من أعظم دول الغـــرب

واقواها ، ان لم نقل أعظمها واقواها على الاطـــلاق .. فقد كانت مساحتها تبلـغ بضعة مـــلايين من الكيلو مترات المربعة ، وكانت مصادر ميزانيتها أعظم و ثبت من مصادر أية دولة أوربية أخرى .. وكانت ادارتها الحكومية منظمة تنظيما محكما تهدف الى توفير الخير العام ، وكانت تثق بولاء شعبها واخلاصه لها .. ذلك الشعب الذى يعتبر الطاعة والنظام من أرفع الفضائل التى يتحلى بها المرء ، أما جيشها النظامى فقد كان أحسن الجيوش تدريبا ، وكانت مدفعيتها أحسن مدفعيه تملكها أية دولة ، وكان أسطولها يسيطر على البحر المتوسط كله . وكان السلاطين يفرضون على الدولة الأوربية أن تحسب حسابا لدولتهم القوية » ..

وانتشى صديقى التركى فقال :

ان الجيش العثمانى ، أو الانكشارية ، هى اول قوة عسكرية دائمة فى العالم الحديث ..

قلت :

ـ وكان جيشا غريبا ـ لو صح التشبيه ـ لكـــان من الممكن القول أنه جيش التحرير العالمى الذى تتحدث عنه الثورات المعاصرة .. أطفال أيتام يؤخذون من الاسرى فيصبحون أولاد « الباويشاه » أى السلطان ويقضون طفولتهم فى التدريب الخلقى والعسكرى بلا انتماءات الا الانتماء للعقيدة ، ولا ولاء الا للدولة ، ولا ملكية الا وعاء الحساء أو الشوربة بالتركى .. حتى يصبح رئيس الأركان هـــو « الشوربجى باشا » أى الذى له حق اعطاء الأمر بعمل الشوربة !

هذه هى الانكشارية التى ضمت أكثر من خمسة ملايين من غير الأتراك خلال ٣٠٠ سنة وهم الذين بنوا ببطولتهم واخلاقياتهم الامبراطورية العثمانية .

قال الشاب وقد بدا عليه الاهتمام بمناسبة الحوار :

ـ ولكن الفكرة السائدة عن الانكشارية هى انها أحط جند

عرفه التاريخ ، بل أن تاريخ القرن التاسع عشر كله هو تاريخ المحاولات التى بذلت للتخلص من الانكشارية لاصلاح الدولة ..؟!

— هذا هو وجه الخطأ فى الحكم على الظواهر التاريخية أن ندينها بسلوكها فى مرحلة الانهيار .. الانكشارية ككل ظاهرة بدأت متألقة ثم انهارت وتفتتت ، وكما قامت الامبراطورية بسيوفها انهارت بعجز وتخلف تلك السيوف ..

وقلت :

— يكفى للحكم على أخلاقيات الجند الذى فتح القسطنطينية وشق طريقه فى اوربا الى أسوار فينا ثلاث مرات .. أن نعيد قراءة خطاب السلطان « محمد الفاتح » لهذا الجيش عشية فتح القسطنطينية .

قال السلطان : « لقد سمعتم أن أوربا ستتوحد ضدنا .. لا تهتموا .. أنتم تعرفونهم وتعرفون أخلاقهم .. انهم كسالى ، يحبون الخمر ، والاكل بشراهة ، أدعياء فى أوقات الرخاء ، قليلو الصبر وقت الشدة ، يحبون الترف ويكرهون النوم الا على وسائد من الريش ، اذا ما بعدوا عن نسائهم تنتابهم الكآبة ، واذا امتنعوا عن شرب الخمر ساء تصرفهم ، لا يتحملون الحر ولا البرد ولا الجوع . يجهلون كل شيء عن صناعة الحرب ، خيولهم للصيد ، فاذا احتاجوا الى حصان حرب جاءوا الينا يشترونه منا ..

تمزقهم الخلافات ويتقاتلون فيما بينهم ، لأن كلا منهم يريد أن يكون هو الملك ، كل واحد منهم يفكر فى نفسه ، ولا أحد يفكر فى المصلحة العامة ، لا يطيعون رؤسائهم ولا يعرفون النظام ..

« وهم عندما ينهزمون يعتذرون بقولهم « لم نكن مستعدين كما يجب» أو «لقد خاننا هذا الحليف أو ذاك» أو «كنا أقل عددا من الأتراك » أو « لقد شن الأتراك علينا عدوانا غادرا دون اعلان حرب» أو لقد احتلوا بلادنا باستغلال مشاكلنا الداخلية » .

أضاف صديقى التركى :

— محمد الفاتح هو أول قائد استخدم المدفعية كسلاح أساسى فى الحروب . وكان عبقريا فى ادارة الجيوش ، هو الذى قال « لو عرفت شعرة من لحيتى بما يدور فى رأسى لاحرقتها » وكان كما قال عنه « دافيد ستاكتون » يعرف تاريخ عالمه وجغرافيته ، مهتم بالدراسات الفلكية ، مغرما بالشعر مهتما بالفنون الى حد دعوة الفنانين الايطاليين للعيش فى قصره ، وكان يراقب كل تفصيلات الأعمال التى يأمر بها ، لا لأن هذه المراقبة هى ضمانة الاتقان ، بل لحبه للمعرفة .

قلت :

القسطنطينية لم تسقط لمجرد المناقشات البيزنطية بين أهلها ، ولا لأن ٥٤ الف من سكانها فضلوا ترك مهمة الدفاع عن مدينتهم للقديسيين والملائكة ، وستة آلاف فقط رأوا أن من واجبهم معاونة القديسيين ببعض الجهد .. ليس هذا هو السبب فى انتهاء الحضارة البيزنطية ، فهذه كانت هى حالة المدنية لعشرات السنين ، وكانت أسوارها وموقعها تحميها من كل المحاولات .. انما سقطت بيزنطة أمام أقوى جيش فى العالم وأكثرها دقة وانضباطا ، وأبرعها فى فنون الاستطلاع والتجسس ، حتى كان المثل الشائع فى أوربا « ان عشرة آلاف تركى يحدثون صوتا أقل من مائة أوربى » ؟ ..

ووصفهم مؤلف « العالم فى اليوم الأخير » : بأن حربهم كانت أشبه بحرب العصابات وانهم كانوا يتقنون فن الكمين والتطويق والمناوشات وكانوا يستطيعون قهر جيش تعداده أربعة أضعافهم .

ومنذ نزل أورخان فى « غاليبولى » ١٣٥٤ لم يهزموا فى أوربا قط الى عام ١٦٨٣ عندما اضطروا الى فك حصار فينا ..

وكانت اخلاقياتهم واسلوب حكمهم تكسب الى صفهم الشعوب التى يفتحون بلادها ، فقد اشتكى ملك البوسنة (١٤٦٣) من أن الفلاحين قد استجابوا لأغراء الحرية التى يحققها الغزاة

الاتراك .. ورفضوا القتال ضدهم .. وفى جميع البلدان التى فتحها الاتراك لم يغيروا عقيدة ولا أبادوا جيشا ولا فرضوا الاسلام على المنتمين لاى دين ولا حاولوا تتريك أى شعب . الى عشية زوال الدولة عندما حكمها « التقدميون » .. فبدأوا سياسة التتريك .

قال الشاب !

ـ اننا نعتبر هذه السياسة المتسامحة هى التى قضت على الامبراطورية العثمانية ، فقد ظهرت فى مرحلة نمو القوميات ، وكانت أوربا تحقق وحدتها من خلال سحق الاقليات .. كانت الدولة العثمانية تحقق تعايشا مذهلا بين جميع الأديان والعديد من القوميات .. « محمد الفاتح » الذى فتح «القسطنطينية» بسبعين ألف جندى لأنه جاء فى « الأثر » : انها لا تفتح الا بسبعين ألف جندى صالح » وكان جنوده صائمين يوم ٢٩ مايو (آيار) يوم سقوط المدينة ، هذا المسلم الصالح كان ٤ من خمسة وزراء عملوا له من أصل مسيحى ، وفى عهد سليمان القانونى أصبح الرقم ٨ من مجموع ٩ ..

قلت للشاب الذى اتضح لى أنه من القوميين الجدد :

ـ المؤرخ اللبنانى « محمد جميل بيهم » يؤيدك فى رأيك فهو يعلق على قول «رينيه بنيوف» لا يخفى أن الدولة العثمانية ماحاولت قط تتريك العناصر فى ولاياتها الأوربية » .

لذلك فحيث حافظ هؤلاء على أديانهم ، استطاعو أن يحتفظوا أيضا بلغاتهم وتواريخهم ، وبشعورهم الوطنى ، حتى اذا جلا عن بلادهم الأتراك عادوا الى ماكانوا عليه قبل العهد العثمانى ، وعادت الفسيفساء التى كانت تزين كنائس الروم بعد أن طلاها الأتراك بالكلس والجير اخفاء للرسوم المحرمة عندهم ، عادت الى الظهور برونقها وجمالها ، اذ رفع الطلاء عنها . وكان تاريخهم فى زوايا الأديرة لا يفتأ يصون شعورهم الوطنى ..

يعلق المؤرخ اللبنانى بقوله أن العثمانيين جنوا ثمرة هذا التسامح .. انهيار دولتهم والمذابح التى نزلت بالاتراك خلال استقلال الولايات الاوروبية ..

ولكن هذا هو ثمن التسامح الذى تعلمه الاتراك من الحضارة العربية .. ولا مجال للندم ، فهذا التعايش هو مبرر حضارتنا وصفحة فخرها ...

قال الشاب :

ـ لقد ذبحنا فى بلاد كثيرة بعد أن انحسر عنها المد التركى .. بينما حافظنا نحن على القوميات والأديان حيثما حكمنا ... والمسلمون الآن ـ وكلهم من أصل تركى ـ يكتشفون فى ممتلكاتنا السابقة كما يكتشف الانسان الحجرى فى استراليا ... بينما لا تزال الكنيسة الارثوذكسية التى هزمنا دولتها من خمسة قرون موجودة ، ولا يزال بطريركها معززا مكرما وجرى انتخابه قبل اسبوع واحد من وصولكم بمراسيم بيزنطة القديمة بل هو الرئيس الدينى الوحيد الذى يحتل هذه المكانة فى تركيا ... هل تعرف كم ارثوذكسى فى تركيا ؟ ..

قلت :

ـ أعرف من كتب الدليل التركى أنهم أربعة فى الألف ومرة أخرى لا مجال للندم .

ولاول مرة نطقت الفتاة :

ـ كازنتاكس يقول أن أهل كريت ما زالوا يقدمون الكعك ويوقدون الشموع ليلة ٢٩ آيار (مايو) تحية لآخر أباطرة القسطنطينية الذى سقط فى نفس الليلة عام ١٤٥٣ .

قال الصديق التركى :

ـ وماذا عن التخلف ، لماذا عجزت هذه الدولة العظمى عن تحقيق الثورة الصناعية ، وجرت التخلف على العرب ؟

قلت :

— برنارد لويس أشار لتفسير ذلك عندما قال : « كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها فى سبيل دعم قوة العالم الاسلامى وحمايته ضد العدوان الخارجى ، وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون تقريبا فى حرب مستمرة ضد الغرب أولا لمحاولة فرض حكم اسلامى على جزء كبير من أوروبا وهى محاولة رافقها النجاح ، وثانيا لشن حرب دفاعية طويلة الامد فى وجه الهجوم المعاكس الذى قام به الغرب » .

قلت — وفى اعتقادى أن الدولة العثمانية وقعت ضحية حتمية تاريخية ، فقد كان تطورها الحضارى يتطلب فترة سلام خارجى تسمح لها بالتنمية ، ولكن أمنها الداخلى كان مستحيلا بغير وجودها فى أوروبا أى — الحياة فى حالة حرب دائمة استغرقت قواها ..

لو ظهرت الدولة العثمانية قبل موعدها بقرنين ربما كانت قد عاشت الى اليوم ولكن ظهورها صاحب ظهور القوميات الاوروبية التى نمت خلال حربها ضد العثمانيين .. وبالذات الروس الذين ورثوا كنيسة بيزنطة ونفوذ بيزنطة واعتبروا أن الهدف الدينى والقومى هو ابادة الاتراك ، وعلى أنقاض الدولة العثمانية قامت امبراطورية القياصرة الروس ...

وانفعلت الفتاة فهبت واقفة وهى تقول :

— أنا لا يهمنى كل ما قلته عن الدور التاريخى للعثمانيين فى حماية الاسلام والعروبة ... ولكننى كنت فى زيارة طويلة لاوروبا الشرقية . ذهبت الى هناك معتنقة للماركسية ، رافضة التاريخ العثمانى كله ! ففوجئت أن جميع أبطالهم القوميين من موسكو الى بودابست هم الذين قاتلو الأتراك ! ... فسألت نفسى اذا كان الرفاق يهتمون بهزائم أجدادهم أمام أجدادى ... فلماذا أخجل أنا من تاريخ أجدادى وانتصاراتهم .. ؟؟

اذا كان الرفاق يحتفلون بانتصارات أجدادهم على أجدادى .. أليس من العار أن أشاركهم الشماتة

وعدت لالتقى بصديقك « بكير » ...معتزة بتاريخى العثمانى وكان الليل قد تقدم ...

فاستجبنا كلنا لتأجيل الحديث ..

« مع تحياتنا » ..

دس أحدهم من تحت الباب نسخة من صحيفة « ديلى نيوز » وهى الصحيفة التركية اليومية ، التى تصدر بالانكليزية ، فى أنقرة ... وتصفحت الجريدة ، فاسترعى انتباهى تعليقها على الانباء التى ترشح الجنرال « فاروق جورلز » لمنصب رئيس الأركان بعد استقالة الجنرال « ممدوح طغماك » .. ووصفت الصحيفة الجنرال الصاعد بأنه « كمالى يؤمن بالاصلاح وينطق بلسان معظم الجيش » . ولكنها ختمت تعليقها بقولها :

« ليس المهم من يصبح رئيسا للاركان بل المهم هو عودة تركيا للاوضاع الطبيعية التى تجعل تدخل الجيش غير ضرورى » .

وتأملت تاريخ الجريدة فاذا هو ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٧٢ .. واستغربت المصادفة ،، ففى مثل هذا اليوم منذ ٦٤ عاما بدأ تتدخل الجيش التركى فى السياسة التركية .. ومنذ ذلك اليوم ٢٤ تموز ١٩٠٨ عندما خضع السلطان « عبد الحميد » لانذار القوات العسكرية فى مقدونيا ، وأعلن الدستور .. « فجنت الامبراطورية العثمانية بالفرح » كما قال « وليم مللر » فى كتابه « الدولة العثمانيةوورثتها» ... أقول منذ هـذا اليوم والأتراك يأملون فى عودة الأوضاع الطبيعية .

٦٤ عاما شهدت تصفية الامبراطورية التى روعت أوروبا ، وفرضت ارادتها على العالم القديم ثلاثة قرون كاملة ... ثم قاومت

أعنف أخطار واجهت امبراطورية ثلاثة قرون أخرى فصفيت فى عشر سنوات !

الامبراطورية التى وقف سلطانها التاسع « سليم الأول » أمام خريطة للعالم ، فقلب شفتيه استيـــاء من صغر العـالم والتفت الى وزرائه سائلا : « هل يتسع هـذا العالم الضيق لأكثر من سلطان واحد ؟! » .

تحولت بعد عشر سنوات فقط الى أشلاء دويلة تحتلها ايطاليا وفرنسا وبريطانيا ، بل وتطلب اليونان من الدول العظمى السماح لها بانهاء تركيا ... وتنال الاذن فتصل قواتها الى مشارف انقرة .. وهى اليونان التى ظلت ايالة تركية ثلاثمائة سنة ، بل وهزمها تابع السلطان « ابراهيم باشا » فى مطلع القرن التاسع عشر ..

كيف حدث ذلك ؟! ...

كيف أمكن أن تدمر امبراطورية على هذا النحو ... وبيد الذين ظن بعضهم ، وظن الناس انهم أداة الخلاص ، الذين سيرممون آخر حاجز شرقى فى وجه الاستعمارية الغربية ؟! .

ومن أجل الوصول الى جواب ... كان اللقاء فى الليلة التالية لوصولنا الى انقرة – كوفد صحفى فى دعوة رسمية – اهتممنا فيها بكل شىء الا الرسميات !

ولكن الحلقة اتسعت ، وانضم اليها محاورون جدد ،، وكانت الالفة اكثر ، استطعنا أن نتعرف على الأسماء وبعض الانتماءات .

كان صديقى بكير ... وكانت الزميلة اليسـارية « ادبية » « أورخان » وكان الشاب الجامعى – كمال – وهو من جماعة « نورجو » ... ولان صحف أنقرة كانت قد نشرت فى صباح يوم لقائنا ، نبأ محاكمة ٥٤ عضوا من هذه الجماعة فى مدينة « أزمير » ... وصفهم المدعى العام بأنهم « أعضاء فى جمعية سرية دينية متعصبة » .. لذا

حاولت أن أعرف شيئا عن هذه الجماعة الدينية والسرية والمتعصبة والتى تضم رغم ذلك ٥٤ عضوا فى مدينة واحدة ، هم اللذين توصلت اليهم سلطات الامن !

وكما هو الحال دائما أنكر « كمال » وجود أى تشكيل أو تنظيم! ولكنى عرفت منه ومن غيره بعد ذلك أن جماعة « نورجو » أى « طلاب رسائل النور » هى آخر حقيقة سياسية فى تركيا ، رغم انها لاتتعاطى السياسة بشكل مباشر .

وهى جماعة تضم على الأقل ثلاثة ملايين شاب تركى ، وتعتبر القوة الرئيسية فى الجامعات والخريجين ،وهى القوة الانتخابية التى سحقت حزب الشعب الجمهورى وعزلت « اينونو » وجعلته يحصل على ٢٢ مقعدا من ٤٥٠ مقعدا فى انتخابات ١٩٥٠ ثم هبط الى ٢٤ فى الانتخابات التالية .. ولم يعد مرة أخرى الى المسرح السياسى الا بتدخل الجيش .. واضطر الى القول فى سنة ١٩٦٥ : أنا لم يهزمنى « سيلمان ديميريل » بل هزمتنى « جماعةالنور » وهى الجماعة التى تقاتل على جبهتين ضد الشيوعيين ، وضد الكماليين المعادين للدين الاسلامى .

وهى جماعة كونتها شخصية اسطورية هى الشـــيخ « بديع الزمان سعد النورى » من شرق تركيا حيث – الدين هو القومية ، وحيث دارت معارك الافنـــاء بين تركيا والامبراطورية الروسية ، القيصرية ثم الشيوعية .

وجاء بديع الزمان الى اسطنبول فى عهد السلطان « عبد الحميد» يطلب فتح المدارس وانشاء جامعة فى ديار بكر ولكن الأحداث عاجلته، وخلع السلطان ، ثم كانت الحرب العالمية الأولى وتطوع للقتال فى الجبهة المدببة للأتراك ، وهناك أسره الروس ، ونفود الى سيبيريا ، وعندما سقطت الدولة الروسية فر عائدا الى تركيا ، وعندما بدأت

حرب التحرير غادر اسطنبول حيث كان « الخليفة وانضم الى أتاتورك فى أنقرة الذى كان يمثل – وقتها – حركة المقاومة للغزو الأجنبى ، وساهم مع أتاتورك فى تعبئة الشعور الشعبى وتجنيد المتطوعين ، وبعدما تم النصر ، قال أتاتورك للأدبية التركية « الآن بدأت مرحلة افتراسنا لأنفسنا » اصطدم بكمال أتاتورك ، ولكنه كان أضخم من أن تناله يد التنكيل الدموى ، فنفى نفسه الى قرية نائية على حدود ايران هى « وان » .. وعندما تحرك الأكراد فى ثورتهم المشهورة بقيادة الشيخ (سعيد) حاول قائد الاتراك أن يضم اليه « بديع الزمان » غضبة للدين الذى كان اتاتورك قد شن حملته ضده ... ولكن عندما قمعت الثورة الكردية وحوكم الشيخ « سعيد » ضبطت معه خطابات من « بديع الزمان » يحذره من العصيان وينذره بعواقب هذا العمل .. ورغم ذلك نفته السلطة من الشرق الى الغرب حيث ظل ما بين نفى وسجن وتحديد اقامة من سنة ١٩٢٨ الى سنة ١٩٥٠ وخلال تلك الفترة الف مائة وثلاثين كتابا سماها « رسائل النور » يدعوا فيها الى التعايش بين الايمان والعلم ويشرح فيها الدين باسلوب جديد استهوى الشباب المثقف ، فتناقل الناس رسائله نسخا باليد ... وأصبح قراء الرسائل يسمون « طلاب رسائل النور » أو « نورجو » ... ونبت التنظيم بالضرورة .

وفى سنة ١٩٦٠ توجه « بديع الزمان » الى اورفة عبر انقره واستنبول . فخرجت جموع الشباب الجامعى تستقبله كالفاتحين وحاول محافظ « أورفة » أن يخرجه من البلد فرفض ومات ... وسار فى جنازته نصف مليون تركى وعندما وقع الانقلاب العسكرى الأول، يزعم أنصاره أن الانقلابين نبشوا قبره ، ونقلوا جثمانه الى مكان مجهول .

وجماعة « طلاب النور » هؤلاء هم الذين ينظمون مقاطعة البضائع الاسرائيلية ويؤيدون كل اتجاه نحو التعاون مع العرب ، وان كانت

ازمات العالم العربى ، وصراعاته السياسية وخلافاته حول دور الاسلام فى السياسة قد انعكست على موقف جماعة النور التركية سلبا فى علاقاتها بقضايا العالم العربى وقواه المتنازعة .

كذلك انضم الينا ضابط شاب من أقارب « بكير » ..

والجيش التركى ظاهرة شديدة التعقيد ، فهو فى مجموعه يشكل أكبر قوة يمينية يجمعها خطر نظرى دائم هو الخطر الروسى ، وخطر موسمى هو الخطر اليونانى ... ولكن هذا الجيش نفسه يعتبر أكبر قوة ما زالت متشبثة بمبادىء الكمالية فى تركيا ... وان كانت بعض التيارات اليسارية قد شقت طريقها فى صفوف ضباطه الا أن الجندى التركى أو فلاح الأناضول ما زال على تعصبه القومى ، وتدينه القوى .

المهم أن صاحبنا الضابط ولنسمه « كوزوكغلو » .. هو الذى بدأ الحوار عندما قال :

ان الدراسات العربية تخلط عن جهل أو عن عمد بين الحركة الكمالية وحركة الاتحاد والترقى رغم التناقض الجوهرى بين الحركتين ... فحركة الاتحاد والترقى باتفاق جميع المراجع المعاصرة حركة وجهها واستغلها الماسونيون والصهيونيون وأعداء الدولة العثمانية من الانكليز والفرنسيين والروس ... وأخيرا الألمان .. وهى حركة سلمت تركيا للهزيمة وقادتها الى حرب خاسرة ثم فرت هاربة عندما احتل العدو أرض الوطن وانتزع كل الولايات ومن انقاض الهزيمة قامت الكمالية ... تدعوا للمقاومة وتنظم الشعب للقتال وقادته للنصر بطرد العدو من أرض الوطن وبناء تركيا الحرة المستقلة ... وحركة « الاتحاد والترقى » هى انقلاب عسكرى بينما الكمالية حركة شعبية كان مصطفى كمال مسرحا من الخدمة عندما نظم المقاومة الشعبية وقادها لتحقيق ثورته وطرد المحتلين .

قال صديقى بكير

– هذا خلاف فى الشكل ولكن الجوهر واحد وحتى لا نختلف من البداية دعنا نسترجع وقائع التاريخ :

– فى منتصف القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية هى رجل أوربا المريض ومن خلفها الشرق كله يقع كالفريسة العاجزة لا حول لها ولا طول يلتهمها الوحش الاوربى ·

كتب (كوكفيل) يصف هذا الوضع فى سنة ١٨٥٥ : (أود أن أعرف سر هذه الحشرة التى تأكل هذا الجسم الآسيوى الكبير حتى تسلمه لسيطرة قارتنا الصغيرة أوربا التى كثيرا ما ارتعدت أمامهم فى الماضى ان الأمة الاسلامية التى وصفها الرحالة القدامى بانها أمة ذكية بل حتى المعية ينخر فيها فساد لا علاج له ظل يجرها الى الأسفل خلال القرون الماضية فهوت بينما كنا نحن نرتقى ·· ان الأجناس الأوروبية تسيطر على جميع الأجناس الأخرى ولا شىء على وجه الأرض يقدر على مقاومة ذلك ·

يقول العقاد « كانت الدولة العثمانية هى التركة التى يتحدث عن اقتسامها علنا أعداؤها المتربصين بها فى القارة الاوربية بلا اختلاف بين قادر منهم وعاجز وبين مستعمر منهم ومبتدىء فى صناعة الاستعمار كل يطالب بنصيبه من ذلك الملك المباح كان اسم «التركة» أو « الرجل المريض » عنوانا على البلاد العثمانية ··· أيا كان ساكنوها من مسلمين أو غير مسلمين ومن ترك أو عرب » ·

قلت :

المواجهة اذن كانت بين الشرق تمثله الدولة العثمانية وبين الغرب الاستعمارى ···· وبالنسبة لنا نحن العرب فقد كنا هدفا للمستعمرين من مسلمين ومسيحيين ·· وكانت الدولة العثمانية هى الحاجز القانونى الذى يؤخر سقوطنا فى يد الاستعمار الغربى ··

واستأنف بكير الحديث :

– فى مواجهة هذا الخطر بدأ البحث عن حل ·· وكان الحل معروفا تقوية الدولة العثمانية وتصنيعها لتمتلك من الاسلحة مايكفى لرد الاطماع الاستعمارية ولكن التصنيع بحاجة الى استمرار الاستقلال وتأخير الاحتلال ·· واوربا الاستعمارية لا تترك فرصة الاستقرار للدولة ·· فكان الحل هو الدعوة (للتضامن) الجامعة الاسلامية ·· جامعة شعوب الشرق·· العالم الثالث التضامن الآسيوى – الافريقى ··· كلها شعارات انطلقت من فكرة واحدة هى مواجهة التفوق التكنولوجى للاستعمارات الغربية بالكثرة العددية لكسب الوقت حتى يتم التصنيع والتحديث ···

قالت الفتاة اليسارية :

– أنا معك أن شعار « الجامعة الاسلامية » لم يكن شعارا طائفيا بل ثوريا وتحريريا فى مواجهة الاستعمار الاوربى ··· بل أن لينين حاول اقناع أتاتوك برفعه ولكن الدولة العثمانية كانت فريسة تناقضاتها القومية وأساسا بين العرب والأتراك وكان لا بد من فك هذا التناقض قبل أن يتم الحديث ·

قال بكير :

– هذا غير صحيح ··· فالتناقض التركى – العربى لم يظهر الا فى مطلع القرن العشرين وبفعل الحركات المشبوهة أما قبل ذلك فكانت كل الفرص متاحة لتحقيق وحدة عربية – تركية وقيام دولة شرقية قوية تواجه الاستعماريات الغربية ···

والتفت الى الزميلة « زبيدة » وقال : – لماذا تقبلين وحدة المسلمين والروس فى الاتحاد السوفيتى وترفضين فكرة اتحاد العرب والأتراك ···

قالت : ولكن التميز القومى كان يجعل مثل هذه الوحدة مستحيلة ··

قال :

التمييز القومى لم يظهر فى عهد الخلافة بل كان عبد الحميد يحرم أى حديث عن القومية التركية سواء فى الكتابات السياسية أو الأدبية وكانت غالبية رجال عبد الحميد من العرب ..

قلت :

هذا صحيح ... يذكر المؤرخ جميل بيهم أن عبد الحميد بعد ماتبين أن الامبراطورية سائرة الى الانسحاب من أوربا ركز جهوده على دعم الوحدة العربية التركية فعين عربيا هو خير الدين باشا التونسى صدرا أعظم (أى رئيس وزراء) سنة ١٨٧٨ وقرب اليه جمال الدين الآفغانى وأصبح من رجاله الشيخ أبو الهدى (حلب) والشيخ محمد ظافر (الجزار) والشيخ سعيد (حمص) والشيخ أحمد القيصرلى (من المدينة) بل وأنشأ فرقة خاصة لحراسته من العرب وكان مدير مخابراته لبنانيا مارونيا هو نجيب باشا ملحمة ومن ياورانه الفريقان محمد باشا ومحى الدين باشا ابنى الأمير عبد القادر الجزائرى وفؤاد باشا المصرى كما كان من أركان أساتذة المدارس العسكرية والحكومية المشير أركان حرب شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا من قرية المتن بلبنان وشكرى باشا من الأيوبى (دمشق) ناظر الأعمال العسكرية والميرالاى مطر (بيروت) واستاذ سليم باز (دير القمر - لبنان) .

وكاتم الأسرار عزت باشا العابد المشهور بـ (عرب عزت) وسليم باشا ملحمة المارونى وزير التعدين والغابات والزراعة ونعوم باشا (السورى) وكيل وزارة الخارجية ومحمود شوكت العراقى قائد الجيش الثالث فى سالونيك .

ولم يكتف بذلك بل زوج أميرتين من أقاربه لشابين عربيين

والتفت بكير الينا وقال :

- أهذه مظاهر كبت قومى ؟

قال الضابط

- كل هذا صحيح ولكن العرب لم يستجيبوا لذلك بل دمروا الدولة باصرارهم على الانفصال ...

قال بكير :

أرجوا ألا تتعجل الأحكام واذا سمحت لى بمتابعة حديثى فانى أذكركم بان الدوائر الاستعمارية أحست وقتها بخطورة الاتجاه الذى بدأ يتجمع داخل الدولة مطالبا بالاصلاح والتجديد ولكن فى اطار الحفاظ على وحدة الدولة وضد أطماع الدول الاوربية فبدأت تحرك « القوميين » الاتراك و « القوميين » العرب .. واركز على هذه الحقائق :

الحركة الداعية للتغيير والاصلاح كانت حركة أصيلة ووطنية تستهدف تحقيق اصلاح دستورى يضع تصرفات السلطة تحت رقابة ممثلى الأمة لكى يحد من تدخل عملاء الأجنبى والعناصر الفاسدة أو الجاهلة ... فهذا التيار لم تخلفه المخابرات الأجنبية ولكنها وجهته .

- ان جمعية الاتحاد الترقى نشأت فى حماية النفوذ الأجنبى فقد كان مركز نشاطها ونقطة تحركها فى مقدونيا التى سلخت عن اشراف السلطان ووضعت تحت الادارة أو الحماية الأجنبية .

- ان قيادة الحركة كانت فى يد أجنبية أما يهود الدونمة وهم الذين تظاهروا بالاسلام واحتفظوا بعصبيتهم اليهودية أو الماسونيين: « أو شتى العناصر المشبوهة » يقول « ستون وطسن » : « ان الحقيقة البارزة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى انها غير تركية وغير اسلامية فمنذ تأسيسها لم يظهر فى زعمائها عضو واحد من أصل تركى صاف فانور باشا مثلا هو ابن رجل بولندى مرتد وكان جاويد فى الطائفة اليهودية المعروفة بـ « دونمة » وقرة صوه من اليهود الاسبان

القاطنين فى مدينة سالونيكا وكان طلعت باشا بلغاريا من أصل غجرى أما أحمد رضا فكان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجريا ويقول « ان قيادة جمعيه الاتحاد الترقى وزعماءها كانوا جميعا وبدون استثناء من الماسونيين وكان يهود سالونيك جزء لا يتجزء من الجمعية»

« كانت العقول المحركة وراء الحركة اما يهودا أو مسلمين من أصل يهودى واما العون المالى فكان يجيئهم عن طريق يهود الدونمة ويهود سالونيك الاثرياء كما كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية أو البيهية الدولية من فينا وبودابست وبرلين وربما من باريس ولندن » .

ويقول « اوبدى هربرت » النائب البريطانى : « أن يهود سالونيك الذين يعرفون بالدونمة كانوا مدبرى الثورة الحقيقيين وهؤلاء هم من العرق اليهودى ولم يكن أحد يعلم عنهم الكثير الا العلماء ولكن ما من أحد كان يتنبأ بأن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دورا رئيسيا فى ثورة كان لها نتائج خطيرة فى سير التاريخ « وهنا تدخلت مقاطعا فقلت » :

— اعتقد اننا نهين العقل الانسانى اذا ما تصورنا هذه الحماسة اليهودية لتقويض السلطة العثمانية منبعثة من محبة اليهود للشعب التركى ورغبتهم فى تحريره وتقوية دولته خاصة اذا ما ربطنا هذا الجهد بقصة هيرتزل مع السلطان عبد الحميد ... فقد طلب هيرتزل فلسطين من السلطان عبد الحميد ووعده صراحة أن تستخدم اليهودية العالمية نفوذها فى تسوية ديون السلطنة واصلاح ميزانيتها وتقوية أسطولها بل وتحطيم أى اتجاه عربى يحاول الانفصال عن الدولة ولكن السلطان رفض وكان انذار هيرتزل الشهير الذى لم ينشر الا بعد حرب ١٩٦٧ وهو ماجاء فى رسالة «هيرتزل» الى يوسف ضياء الخالدى بالحرف الواحد لقد قلت (أى الخالدى) لمسيو «زادوك كاهن» أن من

الخير لليهود أن يتجهوا بأبصارهم الى جهة أخرى قد يحدث ذلك فى اليوم الذى ندرك فيه أن تركيا تأبى أن تدرك الميزات الضخمة التى تعرضها عليها حركتنا (الصهيونية) لقد أوضحنا هدفنا علنا وبكل اخلاص وولاء وأرسلت الى صاحب الجلالة السلطان مقترحات عامة ويسرنى أن أعتقد أن صفاء ذهنه الشديد سيجعله يقبل الفكرة من حيث المبدأ على أن نبحث تفاصيلها فيما بعد واذا رفض الفكرة فاننا سنبحث وصدقنى اذا قلت لك اننا سنجد ما نحن فى حاجة اليه ... ولكن سيكون معنى ذلك أن «الفرصة الاخيرة» التى تتاح أمام تركيا لكى تنظم أوضاعها المالية وتسترد قوتها الاقتصادية ، «ستزول الى الأبد» ان الذى يقول لك هذا الكلام اليوم هو صديق مخلص لتركيا .. وعليك أن تتذكره » .

« تيودور هيرتزل »

ورغم حصافة السلطان رفض الانذار ونشطت الصهيونية لتقويض دولته ...

وتابع صديقى بكير :

— وكان الفعل يفوق حد التخيل .. قامت الثورة ووصل الماسون الى السلطة بل وخلعوا السلطان وتخيروا يهوديا ليبلغ قرار الخلع لخليفة المسلمين ...

— وعندما أصبحت السلطة فى يد عملاء الصهيونية بدأوا سياسة التنكيل بالعرب تحت ستار « التتريك » فى الوقت الذى بدأ فيه تدفق اليهود على فلسطين معظم زعماء اسرائيل الحاليين دخلوا فلسطين فى ظل العهد الدستورى العثمانى ... ويقول (توفيق برو) ان وزير مالية الحكم الثورى اليهودى الاصل ترك المجال لهجرة اليهود الى فلسطين وشراء الأراضى فيها .

وتحرك النواب العرب فى البرلمان العثمانى فقدموا للمجلس طوابع بريدية باسم الزعيمين الصهيونيين « هيرتزل » « ونبوردوا » يرسل الصهاينة فى فلسطين عن طريق المكاتب الأجنبية رسائلهم باسمها فى ظل حكومة الاتحاد والترقى .

وقال النائبان شكرى بك العسلى وروحى بك الخالدى ...
« ان للصهاينة فى فلسطين أندية ومحاكم خاصة ولهم أعلامهم يرفعونها فى أعيادهم وأناشيد ينشدونها وهم يسعون لشراء الأراضى المشرفة على سكة حديد الحجاز ويرجون التوسع فى سوريا حتى العراق وقدم روحى الخالدى وثيقة صادرة من قيادة الصهيونية تتضمن الخطة التى تضمن الاستيلاء على فلسطين ونبه المجلس الى أن عدد اليهود يتزايد فى فلسطين حتى أصبح مائة الف يهودى فى متصرفية القدس وحدها وان أغنيائهم اشتروا لهم نحو مائة الف دونم » .

وتصدى للرد على النواب العرب نائب يهودى هو نسيم مزلياح أفندى « فكافأه حكام تركيا الجدد فى عصر الاصلاح والثورة بتعيينه وزيرا فى حكومتهم سنة ١٩١٣ وهى الحكومة التى لم تضم وزيرا عربيا واحدا وعاد « عبد الكريم خليل » وعبد العزيز جلويش فأثار حركة بيع الأرض لليهود فى فلسطين ... فشنق عبد الكريم الخليل على يد الاتحاديين .

قلت ولعل ذلك يفسر تلك العبارة الغريبة التى قالها عبد الكريم الخليل وهو يعتلى المشنقة « اننى أعرف لماذا يشنقنى جمال باشا وهو يعرف والتاريخ أيضا سيعرف يوما ما ... » .

ومع هذا « التسامح » مع اليهود والتغاضى عن تسللهم الى فلسطين كانت سياسة التتريك والتنكيل بالعرب التى خلقت مناخا صالحا للاستعمار ..

وهنا انفعل الضابط وقال :

— لقد قلت من البداية أن الاتحاد والترقى كانت جمعية ماسونية ولكن الحركات العربية لم تكن أقل شبهة بمن تبدأ الحركة العربية التى دعت للانفصال عن الدولة العثمانية ؟ « وبمن تنتهى ؟ بالجمعيات التى كان البحارة الروس يوزعون منشوراتها فى عهد القيصر ثم لورنس زعيم الثورة العربية ؟

قلت :

— لا تكلف خاطرك أنا سأخبرك بعض المؤرخين يرجع بداية الحركة العربية الى نشاط « الكلية السورية الانجيلية ويعترف المؤرخ اللبنانى جميل بيهم بأن قسما من تلك الحركات كانت من عمل الدول الأجنبية وبايعازها » ويقول أنيس صايغ لم يكن الأتراك والفرنسيون يغالون كثيرا حينما كانوا يتهمون الحركة العربية بانها على تعاون وثيق مع السلطات البريطانية ويقول لم يخف عدد من شهداء لبنان ١٩١٤ — ١٩١٨ ميولهم نحو فرنسا « الوطن الام » والأم الحنون « كما كانت تسمى » وكان « لويس صابونجى » يصدر جريدته فى لندن باسم « الخلافة ومجلة الاتحاد العربى وكان يعتمد على أموال بريطانيا وأصدر خليل غانم فى نفس العام بباريس جريدة البصير وكانت تغذيها الأموال الفرنسية » .

أما نجيب عازورى الذى يرشحونه اماما لهذه القومية والذى ألف كتاب يقظة الأمة العربية وألف فى باريس حزبا باسم « جمعية الوطن العربى فرأى المؤرخ السورى توفيق برو ، « ان كتاباته كانت محل شك وشبهة لأنه كان داعية للدول الغربية » . ويرى أنيس صايغ انه لم يربط الوحدة وبالاستقلال » . ويقول البرت حوارنى « ان عازورى حذر من خطر التوسع الروسى والألمانى وأكد أنه لا صديق للعرب الا الانكليز والفرنسيين ... » .

— وقتها كان الانكليز والفرنسيون هما الخطر المباشر على

استقلال الدول العربية ...

علق الضابط

وأكملت :

ـ وأفظع من هذا أن باعث يقظة العرب هذا هو الذى قال ان انشاء المستعمرات والمصارف اليهودية فى فلسطين يؤدى الى تقوية القومية العربية ومساندتها من جانب أقطاب المال فى العالم كما يقول ألبرت حورانى فى ترجمة « عازورى » .

ويقول « بيهم » ان احدى هذه الجمعيات كانت تضم قنصل فرنسا فى بيروت وكانت تعمل لاستقلال العرب تحت حماية فرنسا ومؤتمر باريس الذى نؤرخ به الحركة العربية يقول « صايغ » عنه انه يخاف من المطالبة بالاستقلال حتى لاتحرج بعض الدول الاوربية التى كانت تشجع الحركة العربية وتمدها بالأموال ورفض المؤتمر تمثيل مصر التى كانت تحتلها بريطانيا لأنها غير عربية ..

قال صديق بكير

أو بمعنى أصح لأن الحركة العربية فى مفهوم المجتمعين كانت قاصرة على تحرير الولايات العثمانية التى لم تحتل بعد من قبل الدول الغربية وتسهيل احتلال هذه الدول لها ..

ويقول « أحمد عزة الاعظمى » ان هذه الجمعيات كلها كانت تمهد الطريق لاستيلاء « فرنسا على سوريا ووضعها تحت حمايتها » .

المهم ـ قلت أنا ـ ان تدمير الدولة العثمانية قامت به قوتان ومن الجانبين : الأتراك الشباب كما كانوا يسمونهم أو جمعية الاتحاد والترقى التى ثارت على السلطان وتولت السلطة فحكمت بأسلوب

العصابات وسلمت تركيا للصهيونية والامتيازات الاجنبية ... والجمعيات العربية المشبوهة التى توجت « كفاحها بثورة يقودها « لورنس » موظف بالمخابرات البريطانية وعميل مفضوح للصهيونية يقول عنه « هيرتزل » انه ـ أى لورنس ـ لا يستحق أن يحل سيور حذائه مما يشكك حتى فى مسيحيته .. لأن هذا التعبير قيل فى السيد المسيح ذاته ... »

وهنا سألت الفتاة :

ـ فأين أتاتورك من ذلك كله ...

قال بكير :

ـ مصطفى كمال ـ قبل أن يصبح « تاتوركا ـ كان عضوا نشيطا ومسؤولا فى جمعية الاتحاد والترقى ... ولعب دورا أساسيا فى نجاح حركتهم وخاصة فى الانقلاب الثانى ..

قال الضابط :

ـ ولكن أتاتورك اختلف معهم ولم ينل منصبا هاما فى حكمهم ...

قال بكير :

ـ الأفضل أن نتوجه للعشاء ثم نستأنف الحديث ...

وقد كان ...

وفى الليلة الأخيرة ، دار الحديث عن الكمالية ...

ماذا حققت الكمالية لتركيا ، وما دورها فى العلاقات العربية ـ التركية ، خلال نصف القرن الماضى وما بقى لها من تأثير على هذه العلاقات ؟ وهل بقى لها دور عظيم تلعبه فى تركيا ... وما موقف

الجيل الجديد منها ... وهل تحولت الى قيد على حركة التاريخ التركى ؟ ولما أصبحت الجماهير تصوت بحماسة لكل تشكيل يوحى بأنه ضد الكمالية وسيخلص الشعب منها فى بلد الكمالية هى دينه الرسمى ... صور أتاتورك تطل من كل مكان كالشبح ... والنظام الرسمى يعتبر مخالفتها أو الخروج عن مبادئها الثلاثة « الجمهورية والقومية والعلمانية » بمثابة الخيانة الوطنية — هل أحس حزب (أتاتورك) نفسه (حزب الشعب) بعزوف الشعب عن الكمالية فقرر اعتناق اليسارية وكانت النتيجةهى موجة الاستقالات التى يتزعمها النائب « كمال ساتير » المفروض أن يكون قد أعلن أمس الاول (الاربعاء ٣٠ آب) انشاء حزب جديد متخيرا يوم الجيش أو (ظفر جيش) أى انتصار الجيش التركى على اليونان منذ خمسين عاما ، وهو عيد قومى فى تركيا ، عيد خاص للجيش ويتخرج فيه طلبة الكلية الحربية ويرقى الضباط ...

وهذا الاختيار من جماعة كمال ساتير ليس مجرد منافقة للجيش ، فى دولة ، الكلمة العليا فيها دائما للجيش ، بل هو محاولة لاستثمار ذكريات انتصار أتاتورك على اليونان ، لبعث الحماسة من جديد للكمالية ولكن أى أمل لحزب « ٣٠ آب » فى بعث الكمالية من ذكريات معركة « أينونو » وغيرها وبطل « أينونو » نفسه الذى أضاف اسم الموقعة الى اسمه هو رئيس الحزب الذى ينشقون عنه ويتهمونه بخيانة الكمالية .

« أوخان كابلىباى » نائب أزمير استقال من حزب الشعب متهما الحزب بأنه « يحكم الآن بشعار الاتجاه التاريخى الجديد .. وهو شعار لا يعنى الا (المادية التاريخية) ينقده جماعة من الذين أجريت لهم عملية غسيل مخ ...) وأعلن (لا يمكن أن أستمر فى تشكيل حزب يتبع سياسة غامضة بالنسبة للحزب والامة فجماعة (أجاويد بولانات — رئيس الحزب الجديد الذى يباركه

أينونو —) نسفت مبادىء الحزب وهى القومية والجمهورية والعلمانية .. وبدأت تستخدم مبادىء الشعبية والراديكالية وسيطرة الدولة وبمفهوم ماركسى » .

وقال نائب آخر من المستقلين : الحزب أصبح مضادا لفهم الكمالية ، وأن قيادته الجديدة تحول حزب (الشعب) الى حزب (طبقة) (أتاتورك هو أول من رفض الاعتراف بصراع الطبقات وجمد كل خلاف أو اجتهاد بحكاية وحدة الحزب .. أى أن اتجاهات ومطالب الشعب تتجسد فى قراراته) .

وقال (خليل سنجور) نائب (يوزغات) من المستحيل أن تجمع الاشتراكية والكمالية تحت سقف واحد — وكتب «أوزديمير» وهو مستقيل بدوره الى عصمت أينونو (لكى أستطيع أن أنظر فى وجه ابنى البالغ من العمر عشرين عاما ، ولكى أشعر بالراحة عندما أذهب الى السرير مع زوجتى ... أحسست بضرورة الاستقالة من حزب الشعب » .

أما « نجيب يركيلا موجولو » نائب أزمير فقد أعلن استقالته فى مؤتمر صحفى وقال وهو يبكى فعلا : ان الحزب الذى أنشأه أتاتورك لم يبق منه الا الاسم والمبنى ورصيد فى البنك .. وأصبح يخضع لقيادة ماركسية .. وهكذا يتخلى الجميع عن الكمالية مع الصراخ بالحفاظ عليها .. الجماهير تصوت للحزب والعدالة التى يبنى سياسته على نسف العلمانية ، ومن قبل صوتت للحزب الديمقراطى ..

وحزب الشعب يتمزق لأن خليفة أتاتورك والوريث الشرعى للكمالية يحاول استباق التيار والمزايدة على اسلاميات حزب العدالة ، باعلان تيارات يسارية وماركسية ويطرح شعارات من

طراز : « الارض لمن يفلحها » ، « ربح المصانع للعامل » ناسفا كل ما أرسته الكمالية من حديث عن وحدة الشعب او القومية ٠٠

هل ينجح العجوز « اينونو » فى الاستمرار جاثما على قلب السياسة التركية لاكثر من خمسين عاما من خلال تجديد قلب السياسة التركية وشعارات الحزب وقيادته ، أم يستجيب للنداء القاسى الذى وجهه اليه « بدوى فايق » المعلق السياسى لصحيفة « دنيا » التركيه وهو (بلاس جو أوبى) ولا أجد له ترجمة أصدق من « حل عنا الله يرضى عليك » ٠

وهل صحيح ان تركيا الآن تحس بضرورة تحررها من الكمالية سلميا ، وبلا ضجة ، تجنبا لانفجار عنيف يعمل له الاسلاميون من جماعة طلاب النور ، الذين يكرهون الكمالية كراهية التحريم بل عكفوا على تربية جيل مشبع بمبادئهم ففرض نفسه على الحياة تتنافس فى اعتناق شعارات هذا التيار كسبا لتأييده ودعمه كما السياسية والاجتماعية فى تركيا وخلق أحزابا وتشكيلات سياسية فرضوا هم احترامهم بأخلاقياتهم وسلوكهم المثالى فى مجتمع يرتشى منذ أربعة قرون ٠٠

وليس الاسلاميون وحدهم الذين ينادون بتصفية الكمالية بل يشاركهم أيضا التيار اليسارى الجديد بشتى مذاهبه من السوفيات الى الماويين الى الارهابيين ٠٠ الذين تتفاوت مواقفهم بين القول بأن الكمالية تخطاها الزمن ، أو القول بأنها هى التى تسببت فى تخطى الزمن لتركيا ٠٠

أنيت قبر

المهم أننا قررنا ان نتحاور حول الكمالية مساء آخر يوم لى فى أنقرة ٠٠٠ وكنا فى الصباح قد زرنا (أنيت قبر أى القبر الكبير ٠٠ وهو ضريح « أتاتورك » وابرز معالم أنقرة السياحية ، ولابد أن يزوره كل وفد رسمى ٠٠ وقد حاولنا جهد طاقتنا نحن الوفد الصحفى أن نتجنب هذه الزيارة لضيق وقتنا ولأن معظمنا زاره أكثر من مرة خلال زياراته السابقة ٠

حاولنا أن نلغى زيارة المقبرة ولكن احتجاجات المرافق واصراره ونظرات الرسميين والمشرفين على الزيارة أفهمتنا أن هذه الزيارة هى جزء من المراسم ٠٠ وقد كان ٠٠ وفى الغرفة التى تضم مكتبه ومكتبته وأشهد أنه لم يكن يكثر القراءة وكيف يقرأ وقد تعلم القراءة وسنه يناهز الخمسين عاما ٠٠

ولذلك قصة أمام كتاب « تاريخ عرب » باللغة التركية — موضوع فى خزانة زجاجية ومفتوح على احدى الصفحات ، لاحظت تأشيرات الزعيم على بعض الفقرات وأردت أن أعرف ما الذى أثار اهتمام الزعيم فوضع تحته خطوطا ٠٠ وسألت مرافقنا أن يترجما لى الفقرات ٠٠ ولكنه أجاب دهشا « لا أعرف » وكدت أسأل : « ألا تعرف التركية ؟ » لولا أن تنبهت فجأة فالكتاب مكتوب بالحروف العربية وهذه الحروف ألغاها « أتاتورك » ضمن اصلاحاته العديدة من الغاء الحجاب والطلاق وفرض الكتابة بالحروف الاوربية، كراهية فى العرب ولكى تصبح تركيا دولة أوربية وهكذا بمرسوم واحد ألغى كل التراث الثقافى للأمة التركية وتحولت الى أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب وبدأت تتعلم القراءة والكتابة من جديد وهو أعجب وأغرب قرار صدر فى التاريخ تخيل أن تشرشل بعد انتصاره على

ألمانيا استغل شعبيته وقرر أن يكتب الانجليز بالحروف العربيـــة وظهر جيل بعد ٢٥ سنة لا يستطيع أن يقرأ كتابا واحدا فى المتحف البريطانى واذا كان أكثر من حاكم قد سجل له التاريخ فضـــل محو الأمية لشعبه ففى اعتقادى أن « أتاتورك » يحتل مكانة خاصة **فى التاريخ فهو أول حاكم فرض الامية على أمه بأكملها ٠٠ صحيح أن الروس فعلوا ذلك بالقوميات المتعددة فى الاتحادالسوفيتى ولكن ذلك كان ضمن مخطط الترويس** ٠٠ ونظرت الى « بولانت » مرافقنا باشفاق فعمره الثقافى لا يزيد على أربعين عاما ٠٠ وفهمت لماذا لم تنجب تركيا الحديثة أديبـــا عالميـــا ولا عالما ولا مؤرخا ٠٠ وكيف تفعل وهى قد اكتشفت الكتابة منذ جيلين وتابعنا الجولة فى المقبرة التى يثوى فيها تاريخ تركيا ٠٠ حتى وصلنا الى حجـر الجرانيت الضخم الجاثم فوق القبر ٠٠ والتقطنا بعض الصور ٠٠ وانصرفنا الى لقاء المساء لنتابع الحوار ٠

كمال أتاتورك المنقذ

قال الضابط :

ـ يجب أن نحسم الليله علاقة أتاتورك بالاتحاديين فصحيح أنه أيد حركة الاتحاد والترقى ولكن شأنه فى ذلك شأن كل الضباط الاتراك الذين أرادوا تخليص تركيا من ضعفها واذا كان قد اتخذ اجراءات عنيفة ضد مشاعر المسلمين فلأنه رأى ـ عن حـــق ـ أن الخلافة هى سبب تخلف تركيا وأنها أيضا سبب هزائمها المتكررة بدليل أنه باتجاهها الكمالى حرر تركيا من الاحتلال الاجنبى وفرض استقلالها واحترامها ٠

قال صديق بكير : فى مثل حـوارنا هـــذا يجب أن نلتزم بالوقائع وحـــدها ولذلك اذا سمحتم لى فسأستعرض لكم تاريخ أتاتورك كما يكتبه مؤيدوه ٠٠ مع ابداء رأيى بالطبع ٠٠

قال : ولد أتاتورك أو مصطفى كما سمته أمه المتدينة زبيده خاتون فى سالونيك مركز اليهود الدونمه والتى احتلتها اليونان بعد ذلك وأخرجت أمه فى قوافل اللاجئين جائعه عـــارية منهوبة مقهورة ٠

وقبل أن يتم عامه الأول كان الانكليز قد احتلوا مصر أكبر مماليك الدولة العثمانية وآخر أمـل فى بعث شرقى يجنب الشرق مأساة الاحتلال الغربى وكان طفلا عصبيا يقول خصومه انه حمل مرض الزهرى الوراثى ويستشهدون بملامحه الحادة التى تطل من صوره الى الآن بينما يرى آخرون أنها ملامح جنرال تركى تقليدى أو مستبد ـ أفعمت نفسى باحتقار معاونيه المنافقين وكان حاد المزاج أصيب أكثر من مرة بشبه انهيـــار عصبى أوشك أن يفضى به الى الجنون وتاريخه العسكرى قبل الحرب العالمية الثانية هو سلسلة من الفشل فلم ينجح فى قمع ثورة الشام ولا سجلت له الحرب الليبية دورا بارزا وفشل فى تنفيذ خطة « أنور » زعيم الاتحـــاديين فى تحرير « أدرنة » بل هزم هزيمة منكرة أمامها سنة ١٩١٣ وحررها « أنور » وبدأت الاحقاد بينهما وفشل فى جميع عملياته على جبهة الدردنيل ٠

وخلال الحرب تولى الجبهة السورية وتجرع مرارة الانقـــلاب العربى بقيادة لورنس ضد الاتراك فحمل الحقد والاحتقار والعـــار طول عمره ٠٠

قاطع الضابط : وفقد أيضا ثقته فى جدوى الرابطة الاسلامية وهو يتراجع تطارده جموع المسلمين العرب بقيادة ضابط بريطانى كافر من سهل البقاع الى دمشق الى حلب الى قرية « هارى تان » فى أضنه حيث بلغه خبر سقوط تركيا وهزيمة ألمانيا وجلس على أحد المقاهى يتسلم قيادة الجيش التركى من القائد الالمانى « مون ساند روز » ـ

لم يأبه صديقى وتابع :

سقطت تركيا فريسة فى يد أعدائها الذين اجتروا حقد ستمائة عام .. انقض الايطاليون فاحتلوا « مونيا » « أكشهيور » « أفيون » « قره حصار » « أناطليا » واحتلت فرنسا « أضنه » وبريطانيا « سمسون » و « أورفا » و « مراش » و « عين تاب » وبدأ اليونانيون الزحف على أزمير وكانت اسطنبول تحت الاحتلال البريطانى والبرقيات تنهال على لندن وباريس وواشنطن وتطالب باخراج الأتراك من « القسطنطينية » وانزال الهلال الى الأبد من جامع أيا صوفيا .. — هنا انتفض الشعب التركى ولم يكن هو وحده الذى انتفض فقبله بثلاث سنوات انتفض الشعب الروسى ضد النظام النازى وأنزل به الهزائم المتلاحقة وانتفض الشعب المصرى فى ثورة ١٩١٩ وانتفض الشعب السورى والشعب العراقى ضد الاحتلال الفرنسى الانجليزى وانتفض الشعب التركى وخاصة فى الشرق بقيادة فتحى رؤوف وعصمت وتشكلت حركة مقاومة شعبية مدعومة بقوات القائد « كاظم قرة بكير » وكان الاحتمال الوارد هو التحام هذه الحركة بثورة العرب ضد الاحتلال الغربى فى مصر وسوريا والعراق واشتعال الثورة التركية التى تدمر مخططات الغرب بعد الحرب العالمية الأولى ..

وقاطعت الحسناء اليسارية أديبة فقالت : كان هناك احتمال آخر هو التحام الثورة التركية بالثورة الروسية .. فالثورة الروسية كانت فى عنفوانها وكان تروتسكى فى قمة نفوذه وهو الذى كان ينادى بالثورة العالمية والثورة الدائمة وكان لينين يخشى أن يهاجم الاستعماريون الاتحاد السوفيتى من نصفه الاسيوى باعتبار أن أوروبا كانت منهكة وبحاجة الى السلام بعد حرب دامية لذلك حاول أكثر من مرة أن يتصل بالاتراك ليوحد الجهود معهم لاشعال الثورة فى آسيا وحذر الاتراك من التخلى عن صلتهم بالعرب

ولو اشتعلت الثورة — كما تخيلها لينين — فى تركيا والبلدان العربية لتغيرت صورة الشرق الاوسط .

— لا أريد أن أناقش النتائج .. وصحيح أن الروس حاولوا اثارة ما كانوا يسمونه بثورة الشرق ولينين وجه دعوة الى شعوب الشرق ووجه نداء يقول « آيا مسلمى الشرق اتحدوا » ولكنى لا أعتقد أن الاتراك كانوا سيقبلون الاتحاد مع العدو القومى ..

— على أية حال — قال بكير — كل هذه الاحتمالات كانت واردة .. ولتطويق هذه الاحتمالات تحرك الانكليز أساتذة « لعبة الامم » فى ذلك الوقت ..

وعقد اجتماع فى قصر « يلدز » حضره السلطان والمندوب السامى البريطانى الذى كان الاسطول وجيش الاحتلال يجعلانه الحاكم الفعلى لعاصمة الدولة التى لم تعد عثمانية .. واقترح السفير البريطانى الذى كان فى هذا الاجتماع تعيين « مصطفى كمال »قائدا عاما .. للجيش التركى لكى يتولى اخماد الثورة فى المناطق الشرقية .

ووافق السلطان تحت ضغط الانكليز (وهناك ثار الضابط .. وقال ان الانكليز رشحوا مصطفى كمال لعلمهم بكفائته) .. ولكن بكير تابع الحديث بهدوء :

— وقد حاول السلطان أن يلغى هذا القرار وأصدر أمره فعلا بالغائه .. قلت :

— نعم .. « مصطفى الزين » يقول فى كتابه « أمة فى رجل » .. أن الصدر الاعظم أبلغ الامر للمندوب السامى البريطانى لتنفيذه وطالبه باعتقال مصطفى كمال ولكن الامر لم ينفذ بسبب اختلاف الانكليز حول من ينفذه : « أسطول صاحب الجلالة » أم

قوات صاحب الجلالة ؛ حتى تمكن مصطفى كمال من اختراق الخطوط البريطانية ووصل الى « سمسون » التى كانت بدورها يحتلهـا الانكليز ..

وبدأ مصطفى كمال يستثمر المشاعر التركية .. الدين .. والقومية .. فالسلطان الخاضع للاحتلال البريطانى اصبح يضيف الى شعبية « مصطفى كمال » جديدا بكل قرار يصدره ضـده .. وعندما أعلن خلعه من الجيش تحول « مصطفى كمال » الى بطـل المقاومة فدعا الى مؤتمر شعبى مثلت فيه كل القرى والمدن من خلال لجان المقاومة الشعبية .. قالت أديبه : ـ هذا صحيح .. الجيش لم يحرر تركيا بل انحل وتمزق .. الشعب هو الذى حرر تركيا .. والتنظيمات الشعبية التى انتخبت فى جو ديمقراطى قتالى هى التى نظمت مقاومة الشعب واستثارت حماسة الامة ..

قال بكير :

ـ وليس بالعلمانية .. بل لبس مصطفى كمال ثياب«خوجة» (رجال الدين الاتراك) ولا تزال صوره بهـذا الزى موجودة فى بعض المساجد المهجورة .. وانطلق هو ورجاله يصلون مع الشعب فى المساجد بل وكما يقول المؤرخ اللبنانى بيهم ـ بالغوا فى حضور قراءة المولد الشريف .. ومنعوا الخمر ، وألغوا مظاهر الفجور .

قلت : نعم ان قرار دعوة « الجمعية الوطنية الكبرى » الذى تضمنته برقية مصطفى كمال يقول بالحرف الواحد :

١ ـ فى الثالث والعشرين من شهر آيار الجارى وبعد صلاة الجمعة تعقد « الجمعية الوطنية الكبرى » بعون الله أول اجتماع لهـا فى أنقره .

٢ ـ بما أن افتتاح « الجمعية الوطنية الكبرى » يصادف يوم

الجمعة فعلى جميع النواب والشخصيات الوطنية أن تحضر الى المسجد الكبير فى أنقره حيث ستتلى آيات القرآن الكريم وتقام الصـلاة فى هذا اليوم المقدس وبعد الصلاة يقوم النواب الى مبنى الجمعية الوطنية الكبرى حيث يرفع العلم فوق ساريته وتذبح الخراف وفقا لتقاليد الأضحى الاسلامية .

٣ ـ تأكيدا لعظمة هذا اليوم المقدس (الذى ألغى العطلة فيه بعد ما انتصر) يتوجب على جميع حكام الاقضية الألوية أن يدعـوا الناس للصلاة فى المساجد حيث تتلى السـيرة النبوية وتتلى آيات الذكر الحكيم .

٤ ـ على جميع أئمة المساجد أن يضمنوا خطبة الجمعة دعـوة المواطنين الى حمل السلاح من أجل تحـرير الوطن من الاعـداء الغاصبين وقواتهم المحتلة والتقيد بأوامر (الجمعية الوطنية الكبرى) عندما تدعوهم لتلبية نداء الواجب . وبعد انتهاء الصلاة تتلى سيرة المولد النبوى .

مصطفى كمال

أنقره فى ١ نيسان ١٩٢٠ م

وانتشى صاحبنا عضو « جماعة النور » فقـال أو بالاحرى صرخ :

ـ هذا هو مصطفى كمال الذى انتصر على الاجنبى .. وهـذا هو الذى لقبه الشعب (بالغازى) وهو لقب انفرد به السـلاطين العظام الذين جاهدوا فى سبيل الله .. وتحت هـذه الشعارات تحرك الشعب التركى وحقق المعجزة فانتصر انتصارا ساحقا على جميع المحتلين .

قلت :

ـ نعم ـ .. ان المرحلة الأولى من تاريخ مصطفى كمال قبل

ان يصبح « أتاتورك » وهى مرحلة « الغازى مصطفى كمال » استثارت حماسة شعب الشرق ، قال مؤرخ سيرته – و صانع أسطورته – « ارمستونغ » : « ان انتصارات مصطفى كمال قد أنعشت امال الشعوب الشرقية وزادت فى مخاوف الدول الغربية بحيث لم تكن تنشب ايه اضطرابات عدوانيه ضد الدول الغربية من العالم ، الا هزم كل جبروت اوروبا ومرغ جبينها فى الوحل ورأت فيه الشعوب الشرقية منقذا يخلصها من استعباد « الجنس الاوربى » فعرضت عليه ايران وأفغانستان عقد معاهدات دفاعية مع تركيا . كما طلب الهنود مساعدته فى صراعهم مع بريطانيا » .

فى تلك الفترة هوى قلوب العرب حتى شبهه أحمد شوقى بخالد بن الوليد فى قصيدته التى مطلعها :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

قال بكير :

– ولكن أتاتورك رفض زعامة العالم الاسلامى لان الانكليز كانوا يساعدونه على زعامة تركيا فأغلقوا برلمان اسطنبول ونفوا الزعماء المنافسين له الى مالطا ، وخدموا شعبيته باعلان مشروع الصلح الاستفزازى للأمة التركية أعطوا فيه الجنوب لفرنسا وجنوب غربى الاناضول لايطاليا وأزمير لليونان .. فبايع الشعب الغازى ثم حملوا الخليفة فى سفينة وأبعدوه من تركيا بعد ما خلعه مصطفى كمال أو كما قال شوقى (سرقوا الخليفة وهو حى) .

فقلت : أنا لا أميل لهذه التفسيرات البوليسية ولا أعتقد أن أتاتورك متواطئا منذ البداية ولكنه عقد صفقة مع الانكليز بشروط لوزان السرية كما يهمس التاريخ (بين كروزون وعصمت اينونو) فبريطانيا وقتها كانت زعيمة المعسكر الاستعمارى وامبراطوريتها متصلة بتركيا قابلة للانفجار سواء فى العالم العربى أو الهند اذا

ما تحولت تركيا الى دورها التاريخى كطليعة لرفض الشرق الخضوع الى الغرب .. واذا ما انهارت تركيا وتسربت البلشفية من الحدود الروسية الى العالم العربى عبر تركيا – انهارت المصالح البريطانية فى الشرق الاوسط بل وامتد الانهيار الى الشرق الاقصى .. لذلك عقدت صفقة بين بريطانيا وأتاتورك تجرد فيها تركيا من كل العناصر التى تمكنها من قيادة ثورة الشرق ، وتتحول بموجبها الى حاجز ضد تسرب الشيوعية أو النفوذ الروسى .. وتتعهد فيها بريطانيا بتأمين سلامة أراضى تركيا وحكم أتاتورك المطلق لها ..

كان الاسلام هو الذى يربط تركيا بالعالم العربى فمحاه أتاتورك .. ألغى الخلافة ، وترجم القرآن وفرض السفور على النساء وألغى القضاء الشرعى وألغى نظام الزواج والميراث الاسلامى وفرض لبس القبعة وألغى الدين من الدستور وأجبر المساجد على الآذان بالتركية وقراءة القرآن بالتركية وحرم تدريس الدين بالمدارس وحرم على رجال الدين ارتداء زيهم وأطلق على الاسلام الكتاب يهاجمونه ويهاجمون القرآن .. وجعل العطلة يوم الأحد ، كما ألغى الحروف العربية وفرض الحروف الأوروبية فى كتابة اللغة التركية .. ثم ألغى الصلاة من جامع أيا صوفيا وحوله الى متحف وتصدق نبوءة حافظ ابراهيم :

أيا صوفيا حان التفرق فاذكرى   عهود كرام فيك صلوا وسلموا
عصينا وخالفنا فعاقبت عادلا   وحكمت فينا اليوم من ليس يرحم

وانفجرت القضية الاسلامية والعربية وعزلت تركيا عن عمقها الطبيعى وانهارت آمال الشرق فتمزقت قوى الثورة فى مصر والعراق وسوريا واستغل عملاء الثورة فى مصر والعراق وسوريا واستغل عملاء الانكليز فى الهند الوضع فتظاهروا بالغيرة على الاسلام وتحقق الشطر الاول – وعندما وجه الروس الدعوة اليه

مؤكدا أنه لا شعوب مستعمرة ولا شعوب مضطهدة ، ولكن من يرضى الظلم يظلم .

وأعلن أن تركيا اختارت السلام مع الجميع ، ثم بطش بالحزب الشيوعى التركى : وتحقق الشطر الثانى فاستقر بالسلطة .

أتاتورك المستبد

وهكذا تحول الغازى الى القتال ضد شعبه فعندما سألته (خالدة أديب) بعد توقيع معاهدة الصلح (ماذا ستفعل الآن وقد انتهى الخطر الاجنبى) أجابها (سنبدأ بافتراس بعضنا البعض) .

وقد كان .. شنق جميع رفاقه الذين حققوا النصر لوطنه معه ، الى الذين تحولوا الى سكرتيرين خصوصيين بل وأقام ليلة شنقهم حفلة راقصة الى الفجر — موعد تنفيذ الاعدام — وعند الفجر ركل بقدمه القاضى الذى حكم بالاعدام على خصومه وصرخ فى المدعوين « كلكم كلاب — كلكم جبناء » وخرج القاضى والمدعوين مزعورين ليروا المشانق فى مواجهة القصر يتدلى منها رجالات تركيا الذين قالوا .. لا .. وتعلم الجميع أن يقولوا نعم .

ظفر الشرق بالمستبد الذى طالما تمناه هو الذى ابتدع (محاكم التطهير) وهو الذى ابتدع ضرب الشعب باسم الشعب واجراء انتخابات بين حزب واحد يرشح هو لها ويحذف الاسماء ويشنق المعارضين .

هو الذى قال « أنا تركيا .. وتركيا هى أنا ، أنا رئتها التى تتنفس بها ، فكل محاولة لتدميرى هى محاولة لتدمير تركيا » وأصبحت معارضته خيانة للوطن .. أو خنق للوطن فهو الرئة التى يتنفس بها الوطن .

هو الذى ابتدع فكرة الوصاية على الشعب حتى يبلغ الشعب سن الرشد فيتنحى .. وكان يتنحى أحيانا حتى تزحف الجماهير التى تنظمها اجهزته ترجوه أن يعود لانقاذ الوطن .. ومات ولم يبلغ الشعب سن الرشد .

وانحصرت اصلاحاته فى توحيد الزى وغرس الاشجار وتحرير المرأة من التقاليد والدين .. وفرض اسم عائلته على المواطنين (فاملى نيم) على الطراز الاوروبى غافلا عن أن انعدام لقب العائلة فى العالم الشرقى هو تقليد ديمقراطى عريق لا يعترف بتوارث الامتيازات والبيوتات ، بل كل انسان باسمه وما يمنحه عمله لهذا الاسم . وترك تركيا نسبة الأمية فيها ٩٠٪ ، ودخل الفرد فيها أقل من خمسين دولار فى السنة ومات وآخر كلماته (هنيئا لكل من يستطيع أن يقول أنا تركيا) .
وجاء « أينونو » يكمل سيرته .

ظهور المعارضة

قال صديقى التركى : حقا ان العرب ديكتاتوريين بالفطرة . احتكرت الكلام .. فهل تسمح لى باستعراض الوقائع ؟ قلت : ان الكمالية مهمة بالنسبة لنا نحن العرب .. فقد جعلوها خلال الفترة بين الحربين العالميتين النموذج الذى يجب أن تحذوه شعوب الشرق .. حتى اكتشفنا بعد الحرب العالمية الثانية أن « تركيا » لم تحقق أى انجاز فى مجال التصنيع . قال بكير : بعد الحرب تقدم ستالين بمطالبه القيصرية ، طالب بامتيازات روسية فى المضايق وضم ولايات قرس — أرضهان — قرقوصة .. وفزعت تركيا فاستجابت للضغط الامريكى الذى كان يطالبها بالانضمام الى الحلف الاطلنطى .. ولكن حلف الاطلنطى رفض انضمامها الا اذا أصبحت دولة ديمقراطية يقوم نظامها على النظام الغربى .. أى تعدد الاحزاب ..

فاختار « اينونو » جلال بايار آخر وزراء كمال أتاتورك وكلفه بتشكيل حزب معارض .. هو الحزب الديمقراطى .. ولكن مندريس الذى ينحدر من عائلة من كبار الملاك كان أعرف بحقيقة مشاعر الجماهير ، وأقدر على مخاطبتها ، فأصبح هو « دينامو » الحزب وروحه ..

وفى انتخابات عام ١٩٥٠ نزل الحزب الديمقراطى ببرنامج عجيب .. توقعت له كل الدراسات الامريكية الفشل المطلق .. كان برنامجه لا يتضمن أكثر من ..

- عودة الآذان باللغة العربية .
- السماح للأتراك بالحج .
- اعادة تدريس الدين بالمدارس .
- الغاء تدخل الدولة فى لبس النساء فاذا كان التقدم يأبى أن تفرض الدولة الحجاب عن المرآة ، فان التقدم يتنافى أيضا مع فرض الدولة العرى عليها .
- اعادة « أيا صوفيا » مسجدا كما كان طوال خمسة قرون »

قال طالب النور :

- أحب الامريكيون أن يجروا اختبارا حول نجاح الكمالية فى استئصال ميول الشعب الدينية .

قال بكير :

- كانت النتيجة مذهلة . سقط حزب أتاتورك الى اثنين وثلاثين نائبا وفاز الحزب الديمقراطى بثلاثمائة وثمانية عشر مقعدا .. واستجاب مندريس لمطالب الشعب فعقد أول جلسة لمجلس الوزراء (غير كمالى) فى غرة رمضان وقدم للشعب هدية الشهر الكريم : الآذان بالعربية ، وحرية اللبس ، حرية تدريس

الدين .. وبدأ تعمير بعض المساجد .. ولم يستطع أن ينقذ وعده فى (أيا صوفيا) ولكنه سمح للمسلمين للصلاة فى مقدمتهم وجاءت انتخابات عام ١٩٥٤ م وهبط نواب حزب أتاتورك الى ٢٤ نائبا.. وأصدرت حكومة مندريس قانونا تسترد به الدولة المساجد التى باعها عهد أتاتورك وفتح ٢ مدرسة للائمه والخطباء وثلاث معاهد لتدريس الدين و ٣٥ ألف مدرسة لتحفيظ القرآن .. قلت :

- واهتم الحزب الديمقراطى بتلبية رغبة الشعب التركى فى الالتقاء بالاشقاء العرب ، وان يكن فى اطار الارتباط بالسياسة الغربية ..

كان « أينونو » قد اعترف باسرائيل فى ١٩٤٨ م واستمر على سياسة الجفاء مع العرب ، فجاء مندريس وانغمس فى السياسة العربية وخلافاتها كأنه حاكم عربى ..

وفرض الرقابة على الادوية والبضائع التى تصنع فى اسرائيل ، وطرد السفير الاسرائيلى عام ١٩٥٦ م

قال بكير :

وفى عهد الحزب الديمقراطى وضعت أول أسس محاولة جادة لتصنيع تركيا ولو بالرساميل الاجنبية وتحرك الجيش .. وتحركت تشكيلات حزب الشعب وأعطت أمريكا الاذن .. فشنق مندريس ، وشنق فطين ذورلو الذى كان يدعو لوحدة عربية - تركيا تكون قلب العالم الثالث ..

صاح الضابط : هؤلاء كانوا عملاء السانتو وحلف بغداد والاطلنطى .

قال بكير :

اذا فانقلاب ١٩٦٠ كان ثورة وطنية شنقت عملاء أمريكا ؟

وسكت الضابط - وكمل بكير : وبعد حل الحزب الديمقراطى

٠٠ ظهر حزب العدالة ، وظهر « سليمان ذيميريل » الذى راهن على نفس المشاعر الدينية للجماهير ٠٠ وتوجه للصلاة فى المساجد هو وزعماء الحزب ومرة أخرى اكتسح الانتخابات فى سنة ١٩٦٥ ، ١٩٦٩ (٢٦٣ من ٤٥٠ نائبا ثم ٢٥٧) وضاعف ديميريل عدد مدارس الائمة الى ٧٢ ومدارس تحفيظ القرآن الى ١٢ ألف وصارت سياسته أكثر تقربا للعرب وأكثر تجنبا للانغماس فى العلاقات التركية ـ الاسرائيلية ٠٠

وكان أخطر قرار هو اشتراكه فى المظاهرة الاسلامية ضد اسرائيل بالرباط بعد حرق المسجد الاقصى ٠٠ رغم أن وزير خارجية تركيا وسفرائها فى أكثر من دولة اقترحوا عدم اشتراك تركيا لأنها دولة علمانية ٠٠ وقد سألته جريدة « جمهورية » التركية ٠٠ كيف يشترك فى مؤتمر الرباط وتركيا دولة علمانية أليس ذلك خروجا على الكمالية ٠٠ فكان رده « ان القدس تهم الأتراك أكثر من أى شعب آخر » ٠

وقد علقت (لموند) على اشتراك تركيا بمقال تحت عنوان « هل استيقظ الرجل الميت ؟ »

وبدأت حملة عالمية على (الردة) الدينية فى تركيا ٠

قال طالب النور :

هذه الحملة كان يقودها صحفى يهودى هو « سامى كوهين » يعمل محررا فى صحيفة « مليت » باسطنبول ٠٠ قال بكير :

وتحرك الجيش وتنحى ديميريل ٠

أزمة اليسار التركى

وطرق الباب ٠٠ وجاء من يهمس بشىء فى أذن الزميلة ٠٠ التى أبلغتنا أن السلطات العسكرية أعلنت عن اكتشاف يساريين من « جيش الشعب التركى » أو « تركى حلق قرتلوش أورذوسو »

وهذا الجيش على مايبدو ـ هواية أعضاءه هى الانتحار ٠٠ وعندما دار الهمس حول انتحار المقبوض عليهم فى السجون ، بدأت السلطات تكتشفهم منتحرين قبيل لحظات اقتحام أوكارهم ٠٠ ومرة اكتشفوا ثلاثة منتحرين بشنق أنفسهم واشعال النار فى جثثهم المعلقة ٠٠ ولكن أعجب طريقة انتحار اكتشفها الانسان هى أن يضع نفسه فى صندوق مثقب مثقل بقطع رصاص ثم يقذف نفسه وهو داخل الصندوق المقفل باحكام فى البسفور وهناك «ذو جفش» أى الشباب الانقلابى (وهو صينى الميول) ، وهناك حزب القوريين الشيوعيين ، والحزب الشيوعى التركى ٠

قال الضابط : لا خوف على تركيا من الشيوعية ، العدو القومى هو الروس والبلشفية تتنافى مع الدين ٠

قال بكير :

ـ مثير أن تتنبهوا أخيرا الى دور الدين ، ولكن لا تطمئنوا كثيرا الى رفض الشعب اليسار فلا تنسى أن اليساريين فى تركيا يعادون اسرائيل وهذا مطلب شعبى ٠

قال طالب النور :

ـ اليساريون ليسوا جادين فى عداء اسرائيل ٠٠

قال بكير :

وأنتم لا مستقبل لكم اذا ظللتم على تجاهلكم لمطالب الشعب الاقتصادية والاجتماعية ..

قلت : أظن أن زيارتى لتركيا قد أقنعتنى أننى أمام أمة عظيمة تبحث عن هوية .. تبحث عن شخصيتها .. تبحث عن مستقبلها وعن تاريخها ودورها .

قال بكير :

ـ وأنتم ساعدونا بتحديد هويتكم .. بتحديد دوركم .. فقد كانت بداية نهضة الشرق من العرب ثم حمل الراية الاتراك ولا يهم من يبدأ الخطوة القادمة ..

قالت الفتاة :

المهم هو أن تهب رياح الشرق من جديد .

قلت : ولن تهب رياح الشرق الا بوحدة العرب والترك ..

وانتهى الحوار ..

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٥/٢٨٢٤